بحوث مؤتمر
المملكة العربية السعودية
في مائة عام

الرياض ٧ - ١١ شوال ١٤١٩هـ
٢٤ - ٢٨ يناير ١٩٩٩م

المملكة العربية السعودية
الأمانة العامة للاحتفال
بمرور مائة عام على تأسيس المملكة

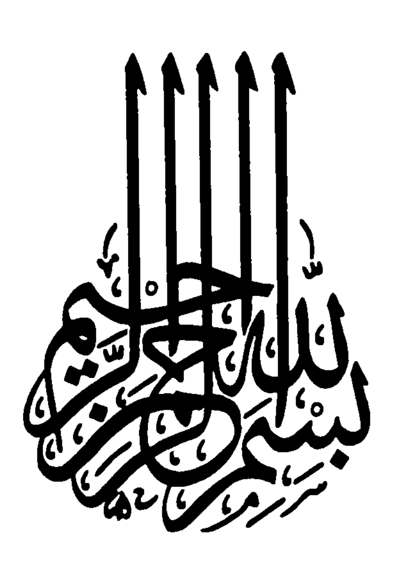


بلادنا في عيون الرحّالة العرب
(عهد الملك عبدالعزيز)

(١٣١٩ - ١٣٧٣هـ / ١٩٠٢ - ١٩٥٣م)

إعداد
أ. د. منصور بن إبراهيم الحازمي

المحور الحادي عشر : الحركة الفكرية والثقافية في المملكة العربية السعودية



لقد كثرت العيون التي رأت بلادنا طوال السنوات القليلة الماضية : سنوات الخير والرفاه، أو الانتعاش الاقتصادي العظيم، الذي استقدمنا خلاله الآلاف من الخبراء والمختصين والعمّال للمشاركة في بناء نهضتنا العمرانية الشاملة . تلك الآلاف قدموا من جميع أنحاء الدنيا ، ذوو سحْنات ولغات وديانات وعادات متباينة، تجمّعوا للعمل لا للسياحة، ولعل عيونهم لم تر أكثر من الخرائط والتصاميم وأكوام الإسمنت والحديد والدراهم . حاسبناهم وانصرفوا ، وبقي القليل .

لا أتحدث عن هؤلاء، ولا عن هذه الحقبة العظيمة المزدهرة المتحركة، والتي لانزال نعيشها وننعم بخيراتها : المدن الرائعة، والطرقات الممتدة، والقرى الخضراء والمصايف الجميلة، ودور العلم والمصانع والمدارس والجامعات الخ . .الخ . . بل أتحدث عن مجموعة من إخواننا العرب الذين قدموا إلى البلاد - أو بعض الأصقاع منها - في عهود المحل والجفاف منذ مطلع القرن العشرين، ابتداء برحلة إبراهيم رفعت باشا الأولى سنة ١٩٠١م في «مرآة الحرمين»، وانتهاء برحلة بنت الشاطىء في «أرض المعجزات» سنة ١٩٥١م . ولا يعني هذا أن العرب لم يقوموا برحلات إلى بلادنا بعد هذا التاريخ (نشر الدكتور محمد بديع شريف رحلته «في مهبط الوحي» سنة ١٩٦٥) ، ولكن معناه أن الرحلة بعد منتصف القرن الميلادي الحالي قد فقدت وظيفتها القديمة في الكشف والبحث وإيصال المعلومات للعالم الخارجي، حين كانت بلادنا مجزأة إلى دويلات وإمارات صغيرة يخيم عليها الفقر والجهل والمرض، قبل توحيدها على يدي صقر الجزيرة الملهم جلالة الملك عبدالعزيز رحمه الله، وإعلانها مملكة واحدة سنة ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م، وحين كانت الحكومة لا تملك من وسائل الإعلام ما يوصل صوتها للعالم خارج الحدود .

لقد قسّمنا في بحث سابق بعنوان :«رحلات العرب في جزيرة العرب - البلاد العربية السعودية»[1] الرحلة العربية خلال تلك الفترة إلى ثلاثة أنواع :

١- رحلة الحج والزيارة .

٢ - الرحلة السياسية .

٣ - الرحلة الصحفية .

وذكرنا مايغلب على كل نوع من هذه الرحلات، كالاهتمام بمناسك الحج والزيارة ووصف الطرق والآثار وحالة الأمن في الأولى، والاهتمام بالحالة السياسية في الثانية، وغلبة الأسلوب الصحفي السريع والاهتمام بوصف الحالة العامة للبلاد ، مع التركيز على الجوانب الغريبة والمثيرة في الثالثة . ولكن جميع هذه الأنواع من الرحلات - على اختلافها

وتباين مناهجها وأهدافها تشترك في شيء واحد، وهي أنها قد صورت، بطريقة أو بأخرى، جوانب من حياة بلادنا وسكانها، قبل الوحدة وبعدها، وفي تلك الفترة المبكرة من تاريخنا الحديث . فهي من هذه الناحية تمثل مصدرا من المصادر التاريخية المهمة التي لا يستغني عنه المؤرخ أو الأديب .

ونحن سنعرض فيما يلي لثلاث صور فقط مما وجدناه أو استخلصناه في رحلات إخواننا العرب :

١- صورة البدوي المتخلف .

٢ - صورة الحاكم .

٣ - صورة الحضري المثقف .

ولا يهمنا هنا تصحيح الأخطاء بقدر مايهمنا تقديم الصورة نفسها، التي قد لا تعجبنا في الوقت الراهن، لأنها تذكرنا بماض قديم، أو لأنها مهزوزة مشوهة، أو لغير ذلك من الأسباب . ولكنها على أي حال، قد لا تخلو من صدق، وقد تمثّل انطباعا عابرا لا يضر . والأهم من ذلك كله، أن تلك الصورة قد غدت جزءا من التاريخ لا يمكن إغفاله . وربما يهمّ المؤرخ تصحيح الأخطاء، أما مايهمنا نحن فهو تقديم الصورة نفسها، ولا سيما الصورة الأدبية بكل ألوانها المضيئة والداكنة .

١ - صورة البدوي المتخلف :

للجزيرة العربية في نفوس الرحّالة العرب صورتان متمايزتان : صورة برّاقة متخيّلة موغلة في القدم، وصورة مظلمة محسوسة يجسّمها الواقع . الأولى منتزعة من كتب السير والمغازي والتاريخ والشعر القديم، والثانية مستقاة من التجربة والمشاهدة . ولا تخلو آثار الرحّالة العرب الذين زاروا الأراضي المقدسة وبعض مناطق الجزيرة العربية الأخرى، في أوائل هذا القرن من هاتين الصورتين : الصورة الرومانسية العاطفية الخلابة، والصورة الواقعية المتجهّمة، ومن الطبيعي أن يكون التناقض حاداً بين الصورتين، لا سيما في أواخر العهد العثماني والعهد الهاشمي في الحجاز . ولقد ساعد على تعميق هذا التناقض في أذهان الرحّالة العرب عدة عوامل أهمها الجهل بأوضاع الجزيرة العربية في ذلك الوقت، وتأخر بلدان الجزيرة العربية اقتصاديا وثقافيا واجتماعيا عن معظم البلدان العربية الأخرى لأسباب كثيرة لا محل لذكرها هنا . ويكفي أن نذكر أن الحجاز في أواخر العهد التركي

وحتى أوائل العهد السعودي كان يعتمد في موارده الاقتصادية اعتمادا كليّا على الحج والأوقاف والصدقات التي ترده من جميع أنحاء العالم الإسلامي . يقول إبراهيم رفعت : «جرت العادة من قديم أن تصرف الحكومة المصرية مرتبات للأشراف والعربان والأهالي بمكة والمدينة» [٢] وليست هذه الموارد ثابتة بل كثيرا ما تتغير بتغير الظروف والأحوال السياسية المختلفة . فالحرب العالمية الأولى حرمت الحجاز من «الصرّة» العثمانية والحجّاج الأتراك، كما حرمته من «الصرّة» المصرية وصدقات الحبوب التي كانت ترد إليه من مصر [٣] وتوتّر العلاقات بين الحجاز وكثير من البلدان الإسلامية الأخرى في عهد الشريف الحسين قد حرم الحجازيين من مرتباتهم التي كانوا يقبضونها من تركيا ومصر، كما حرمتهم أيضا من التبرعات التي كانت تصلهم من الهند وبخارى [٤] .

لقد ساعدت تلك الظروف، إذن، على اقتران حياة الصحراء غالبا بالهمجية والتخلف . ولم تتغير تلك الصورة كثيرا في أذهان الرحّالة العرب الذين قدموا إلى بلادنا خلال النصف الأول من هذا القرن . ويرجع ذلك أيضا إلى العزلة التي عاشتها معظم أجزاء الجزيرة العربية في الخوف والفقر والجهل، حتى غدت مفازة يصعب العيش فيها للمقيم، ومهلكة يحسن تجنبها للمسافر الغريب . أما فريضة الحج فقد كانت حقا رحلة محفوفة بالأهوال والمخاطر .

ومن ثمّ، فقد أصبحت كلمة «بدوي» مرادفة لكلمة اللص أو قاطع الطريق، كما أصبحت تعبّر عن العرق أو الجنس ولم تعد حالة من حالات التمدن البشري . وكثيرا ما اختلطت كلمة «عربي» بـ «أعرابي»، ولا يزال بعض إخواننا العرب يطلقون كلمة «عربي» و «عرب» على البدو الرّحّل .

ولعل خير مايمثل ذلك الخوف المتأصّل في نفوس العرب من «العرب» ماقاله أمين الريحاني في كتابه «ملوك العرب»، مبيّنًا أسباب رحلته إلى الجزيرة العربية، إذ يذكر أنه عندما سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية كان في سن الثانية عشرة من عمره، ولم يكن يعرف شيئا عن العرب وأخبارهم «غير ماكانت تُسمعه الأمهات في لبنان صغارهن : هُسْ، جا البدوي! والبدوي والأعرابي واحد، إذا رامت الأم «بعبعًا تخوف به أولادها . .»[٥] .

ويكاد يكون هذا الجهل الذي يعترف به الريحاني - قبل قدومه إلى الجزيرة العربية سنة ١٩٢٢م - قاسما مشتركا لدى جميع الرحّالة العرب الذين زاروا بلادنا في أواخر

العهد العثماني في الحجاز وبدايات الحكم السعودي . يقول محمد لبيب البتنوني، في كتابه «الرحلة الحجازية» سنة ١٩١٠م ، إن «هذه البلاد غير معروفة للآن كما يجب لذوي البصيرة والعرفان . . . »[٦] ويشير محمد حسين هيكل إلى الإهمال الشديد الذي لحق بالجزيرة العربية من قبل الباحثين في العصور المتأخرة وذلك لتخلفها وضعف شأنها «شأن الناس إذ يرغبون عن كل ما انطفأ بريقه وإن حوى في طياته أثمن النفائس»[٧] . وتقول بنت الشاطىء إنه طوال الأربعة عشر قرنا الماضية كانت آلاف الحجاج تصل إلى المدينتين المقدستين ولكنهم ما كانوا يتخطون حدود الحجاز إلى نجد «وبقيت الصحراء خلال تلك القرون قائمة هناك بكل صمتها العميق وسرها المرهوب . . . » [٨] . ويقول خيرالدين الزركلي إن أكثر الرحلات العربية لم تعن بغير المدينتين المقدستين وما بينهما مما له علاقة بفريضة الحج، وهكذا أهمل الطائف وغيره مما لا صلة له بالفريضة [٩] .

ويبدو أن تلك الفكرة المسبقة عن عزلة البلاد وتأخرها قد جعلت الكثيرين من الرحّالة العرب المحدثين يتصيدون الأخبار المثيرة التي تؤكد الهمجية والتوحش . ومن ذلك ما أورده هيكل عن قوم يعيشون في بعض المرتفعات «لم ينزلوا السهل حياتهم، ويرون في نزوله المعرّة الكبرى، فإذا احتاجوا إلى شيء مما فيه فأتباعهم وضعافهم هم الذين ينزلون». ويقول هيكل :إن بعض المسؤولين قد اقتحموا عليهم عزلتهم فرأوا «هؤلاء القوم يعيشون في الكهوف والمغارات عيش الحيوان المفترس، ورأوا أحدهم إذا ظفر بغنيمة مما كانوا يذبحون فرّ بها إلى كهفه وأوى إليه وانبعث ينهشها كما ينهش الحيوان المفترس فريسته، وجعل يذب عنها من يحاول اقتحام الكهف عليه بأن يدفعه برجله كما يفعل الذئب أو النمر . . . » [١٠]

أوليست هذه صورة منافية للإنسانية نفسها ، وقد كرّم الله ابن آدم وأجلّه من أن ينحطّ إلى مرتبة البهيمة بَلْه الحيوان المفترس؟! ومع ذلك، فإن هيكل يصدق تلك الرواية ويقول : إنه رأى مايشبه محتواها في بعض المناطق الأخرى من البلاد !

ومن المؤكد أن تلك الروايات تحمل الكثير من المبالغة والتزيّد ولا نستغرب أن يصدقها هيكل، كما يصدقها زملاؤه القادمون من الحواضر المتمدنة المترفة في مصر والشام . ولم يكن بعضهم على استعداد لفهم الاختلاف بين الشعوب في السلوك والعادات والتقاليد، بقدر ماكانوا على استعداد لجعل ذلك الاختلاف موضوعا للانتقاد والتهكم . وهيكل نفسه

هو الذي سمع شعرا بدويا، في بعض نواحي الطائف، لم يفهمه، فوصم لغة البدو بـ «الرطانة» «التي لا يصل بينها وبين العربية الأولى نسب» (١١) . أما إبراهيم عبدالقادرالمازني فلم يترك شيئا لم يمدّ له لسانة ويسخر منه . وقد تحوّل ذلك البدوي النجدي البريء الضامر الجسم الذي يضفّر شعره ويسدله على كتفيه ويكحّل عينيه إلى حسناء تسبيه بجمالها وفتنتها : « . . . وثنيت عيني إلى جارتي الرشيقة وشعرها الوحف المضفّر الذي يفترق فوق جبينها الوضاء ويلمع في ضوء الشمس كأنه مدهون «بالبرينتين» وإلى حور عينيها الواسعتين اللتين يزينهما الكحل، وإلى ديباجة وجهها الضافية وماء الشباب الذي يترقرق في وجنتيها، والابتسامة الخفيفة المغرية التي تفترّ عنها شفتاها الرقيقتان . وأحسب عيني لم تتحول عنها . . »(١٢) . وتظن حين تقرأ هذا الوصف أن المازني إنما يتغزّل بغجرية جميلة رآها في بعض شوارع القاهرة، لا ببدوي يتسوق في بعض شوارع ينبع . وتكاد تتطابق صورة ذلك البدوي الرقيق مع الصورة المألوفة في الأفلام الأمريكية عن الهندي الأحمر، إذ يكتشف المازني الحقيقة في آخر الأمر ويعجب «إن هذا الرجل الذي يكاد يسيل من اللين يحسن أن يركب جوادا أو يضرب بسيف أو يقوى على حمل رمح، وقد رأيناه يفعل ذلك كله، فكأنما ركب الجواد ألف عفريت، ولا أكتم أنّا خفناه» (١٣) .

ومن الطبيعي أن يتقذّر أولئك الحضر المترفون من رثاثة البدو وخشونتهم . وقد صور لنا علي الطنطاوي شيئا من ذلك في رحلته التي قام بها مع الوفد السوري إلى الحجاز سنة ١٩٣٥م، بمناسبة افتتاح طريق الحج البرّي للسيارات، وقد نشرت الرحلة سنة ١٩٤٠م . يقول في وصف ما سماه «وليمة بدوية» :

« . . . جاءوا بالدقيق فعجنوه بهذه الأيدي القذرة، ذات الأظافر السود، وصبّوا عليه السمن النيء ومزجوه به، ثم جاءوا بالعجوة فعجنوها معه، فكانت الأكلة من ثلاثة أجزاء متساوية : جزء من الدقيق، وجزء من العجوة، وانضم إليها جزء مثل ذلك من الرمل الذي طار إليها، وجزء من الشعر الذي نزل من رؤوسهم ومن لحاهم فيها . وكنا نريد أن نفطر الصبح فقالوا : لا، بل تصبرون حتى تأكلوا الحنيّنة فصبرنا وصبرنا حتى اقترب الظهر ولم تنته الحنيّنة . ثم جاءت، فأقبلوا عليها بأيديهم يكبكبون ويرمون في حلوقهم، وجئت لآكل فلم استطع . . . » (١٤) .

أما منظر «الخروف برأسه» على المائدة فقد كان في ذلك الوقت مستغربا عند معظم إخواننا العرب، إذ رأوا فيه، فيما يبدو، مثالا صارخا على الغلظة والتوحش . فإذا أضيف إلى «الرأس» الذي ينظر إلى الآكل بعينين حزينتين مطفأتين، تلك الأكف الخشنة ذوات الأصابع الحادة المدرّبة التي تقطع وتنهش وتدحو وتعصر وسط الحرارة اللاهبة، تأكدت لنا صورة ذلك الإنسان الأول الذي رآه هيكل أو سمع عنه في بعض الكهوف والمغارات . يصف الطنطاوي ذلك الوضع - غير الحضاري - على النحو التالي، ونجتزىء منه هذه الفقرة :

« . . . وكان الخروف مفتوح العينين، ناعس الطرف، فأخذتني الشفقة عليه، وتوهمت أنه ينظر إلينا وأنه . . ثم رأيت أنه لا مجال للوهم ولا للخيال، وأن الوقت لا يتسع للأدب، لأن القوم أحدقوا بالقصعة وشمروا عن سواعدهم، ونظروا شزراً فعل من يقدم على معركة، فخشيت أن يذهبوا بالرز واللحم، ويبقى لي الخيال والوهم، ومتى أفاد الخيال جائعا أو أجدى الأدب على إنسان . وكان أصحابنا (رفاق الطنطاوي) يفتشون عن ملعقة أو سكين أو شوكة، فما وجدوا شيئا من ذلك، وأبصروا القوم يأخذ أحدهم قبضة الرز فيديرها في كفه ويعصرها حتى يقطر منها السمن ويحركها كما يحرك اللاعب الكرة قبل قذفها، حتى إذا اطمأن إلى أنها صارت كالقنبلة قذف بها في حلقه، فما استقرت، بإذن الله، إلا في معدته، لا تقف في الفم ولا تمسّها الأسنان . . » (١٥) .

قد لا تعني هذه القطع الأدبية الجميلة - التي نصادفها أحيانا في رحلات الأدباء العرب - نقدا حقيقيّا لأوضاعنا المحلية، إذ كثيرا مايجنح فيها الأديب إلى الظرف والتظرف وعرض مهارته اللغوية أو قدرته على دقة الوصف وإصابة الهدف، مع خلط الجد بالهزل وإشاعة جو غامر من التبسّط والمرح، مما يذكرنا بالجاحظ والهمذاني وغيرهما من أئمة البيان العربي في القديم والحديث . ولكن ذلك النقد، مع مافيه من بلاغة وظرف، لا يخلو من قصد وشعور بالاستعلاء والتميّز، وقد يبلغ أحيانا حدّ السخف كما هو الحال في رحلة محمد شفيق مصطفى التي سماها :«في قلب نجد والحجاز»، فهي رحلة تافهة جدا، مليئة بالأخطاء، وليس فيها فن ولا علم ولا أدب، وقد نشرت سنة **١٩٢٧**م (١٦) .

فإذا ماتركنا هذا الجانب الشكلي في شخصية البدوي، والتفتنا إلى الجوانب الأخرى التي استرعت انتباه الرحالة العرب، ولا سيما في أواخر العهد العثماني، وجدنا أن مشكلة

الأمن هي القضية الرئيسية، وأن البدوي هو المحور الأساس فيها لأنه مصدر الخطر على الحجّاج والوافدين . وقد كان طريق الحاج من أكثر مناطق الجزيرة العربية تعرضا للغزو وأعمال العنف . يقول إبراهيم رفعت : إن أول من أقام للمدينة المنورة سورا كان محمد بن إسحاق الجعدي سنة ٢٦٣هـ، وذلك لكي يحميها من هجمات الأعراب وغزوات البدو[١٧] . ويقول هيكل : بل إن عضد الدولة «أبو شجاع» وزير الطائع لله هو أول من أنشأ سورا للمدينة المنورة سنة ٣٦٠هـ، وكان الأمراء يجدّدونه كلما تداعت أركانه اتقاء لغزو الأعراب [١٨] . ومدينة ينبع البحر محاطة كذلك بسور بناه دولة المشير عثمان باشا نوري، وقد منع الأعراب من دخول هذه البلدة مسلّحين، بل يضعون سلاحهم في المخفر ويأخذونه بعد الخروج [١٩] . وكثيرة هي الأخبار التي تدل على الفوضى وتدهور الأمن في الحجاز منذ أقدم الأزمان . وفي رحلة إبراهيم رفعت والبتنوني ما يؤكد استمرار هذه الحالة حتى أوائل القرن الميلادي الحالي . يقول رفعت عن الجمّالة :« . . . هؤلاء العربان يحافظون على الحجاج وعلى أمتعتهم متى غمروهم بالخيرات من مأكولات ولحوم ومشروب الشاي، وتزداد عنايتهم بالحجاج إذا وعدوا بكسوة يعطونها في المحطة الختامية . وكسوتهم يسيرة الكلفة فهي ثوب قطني من البفتة السمراء وعقال وكوفية لا تتجاوز قيمتها عشرة قروش مصرية، أما من بخل عليهم بماله فيرونه العذاب ألوانا، فتارة يقطعون حزام الجمل فيقع راكبه ويتأخر عن القافلة حتى يصلح الحزام . وربما انتهزوا فرصة الانفراد به وقتلوه إذا لم يبرز لهم الريالات ويتعهد بالغذاء، وتارة يؤخرون الجمل عن القافلة بحجة أن الرحلة في حاجة إلى إصلاح، ومايريدون بذلك إلا فرصة للفتك به . . . »[٢٠] . ويشير إبراهيم رفعت إلى أن الطريق بين جدة ومكة كان مليئا بالقلاع التي يرابط فيها بعض الجنود الأتراك وجنود الشريف لرد الغارات والضرب على أيدي اللصوص وقطّاع الطريق [٢١] . ويقول : إن الطريق من المدينة المنورة إلى قباء مخوف لكثرة النخيل به على الجانبين «فالواجب اتخاذ الرفيق وحمل السلاح، إذ هناك أعراب أشقياء يترصدون من ينفرد عن ركبه فيسلبونه ماله وربما قتلوه . . »[٢٢] . وقد بلغ أذى العربان المشاعر المقدسة نفسها، فقد كان بعض أشرارهم يتربص ببعض الحجاج الذين يبتعدون عن منى لإحضار المياه فيسلبونهم أموالهم . وقد كانت الآبار تبعد عن منى بأكثر من ثلاثة أميال . [٢٣] .

والحقيقة أن مشاكل الأمن لم تكن مقصورة على طريق الحاج بين مكة والمدينة، بل كانت تشمل كافة أنحاء الجزيرة العربية . يقول الريحاني الذي طوّف معظم مناطق جزيرة العرب في أوائل هذا القرن : «كانت الطرق في الأحساء في عهد الأتراك لا تعبر إلا بقوة عسكرية، أو بدفع «الخوّة» . وكانت الطريق بين العقير والحسا، وهي طريق التجارة إلى نجد الأسفل، أكثرها وأشدها أخطارا . فكان التاجر العربي المسلم الذي يروم الوصول إلى الهفوف - مسافة أربعين ميلا - يضطر أن يدفع «الخوّة» كلما اجتاز خمسة أميال أو عشرة من هذه الطريق المخيفة، طريق التجار والأموال» . ويقول لقد جاءها الأعراب من كل مكان : من الجنوب ومن الربع الخالي ومن قطر ومادونها ومن الشمال من نواحي القطيف والكويت ومن داخل البلاد من وراء الدهناء «فحاموا على هذه الطريق وربطوها وقطعوها، وتقاسموا أموال قوافلها» (٢٤) . ولم تكن الجنوب ونواحي تهامة أسعد حالا، فقد كانت تعاني من هجمات بعض القبائل الشرسة التي كانت لا تخضع لسيد أو إمام ولا تخشى أساطيل الإنجليز . فكانوا يقطعون الطريق ويعملون بالقرصنة ويهرّبون السلاح ويتاجرون بالرقيق (٢٥) .

لقد توزّع الأعراب، إذن، على الطرق الرئيسية المهمة في الجزيرة العربية في أواخر العهد العثماني، طرق التجارة أو طرق الحجيج، وكانوا قوة حقيقية يرهبها الأتراك ويداهنها الحكّام . كانوا قوة بأعدادهم وعصبيتهم ومواضعهم الحصينة وجرأتهم، وكانوا مسلحين بالأسلحة الحديثة . يقول إبراهيم رفعت : «شاهدت مع الأعراب جميع أنواع البنادق الحديثة من سمة «ماركة» مارتيني وفورد وليمتفورد الإنكليزية، وسمات أخرى فرنسية وطليانية وغيرها . وشاهدت بندقية رصاص دمدم الخ . وهذه الأسلحة تحضرها إليهم المراكب الشراعية - السنابيك - من الثغور البحرية مثل جيبوتي ومصوع وغيرهما وتباع لهم بأثمان غالية» (٢٦) .

ويقول الريحاني إن القوة الحربية لإحدى قبائل تهامة تدنو من عشرة آلاف بندقية(٢٧) .

لقد كان البدو دولة داخل دولة . بل هم دول صغيرة في دول صغيرة ضعيفة متفرقة مفككة . لم يكونوا يخشون الشريف أو الإدريسي أو ابن رشيد أو الأتراك . بل كثيرا ماتحدوا السلطة وخرجوا على الحكومة الشرعية القائمة . وربما خشي الحاكم سطوتهم فتحالف أو تواطأ معهم . يقول إبراهيم رفعت : إن من ضمن مايحتويه «فرمان» الباب

العالي لأمير مكة حضّه على مساعدة الحجاج وكف أذى العربان عنهم . وفي الفرمان كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تأخذ بمجامع القلوب . ولكنها مواعظ لم تصادف الأذن الصاغية والقلوب الواعية، فإنك تسمع عقب تلاوته دوي الرصاص يرمي به الأعراب حجاج البيت الحرام وترى دولة الشريف يقول : «سيبوهم»، فما أرق الموعظة وما أقسى القلوب» (٢٨) . والحقيقة أن الشريف لم يكن قادرا على حماية ضيوف بيت الله الحرام من بطش الأعراب وجبروتهم، فقد حج أمير الشحر والمكلا هو وأسرته فلم يجد من يحميه في الطريق من مكة إلى المدينة سوى جنود المحمل المصري، ولكنه عندما أراد العودة إلى ينبع البحر أو إلى جدة تكاثر عليه الأعراب يساومونه، ولم يستطع الشريف حمايته على الرغم مما بذله الأمير له وللوالي من الأموال والهدايا، ولم يجد مفرا في آخر الأمر سوى العودة مع المحمل (٢٩) . ويقول إبراهيم رفعت عن جنود الولاية الأتراك المنتشرين في القلاع بين جدة ومكة إنهم «لا يفارقون أماكنهم لرد الغارات والضرب على أيدي اللصوص وقطّاع الطريق، ولو كان ذلك بمرأى منهم ومسمع إلا إذا أمرهم الوالي وأين هو منهم . وكثيرا ما سلب الحجاج أمتعتهم إذا تأخروا عن القافلة لإصلاح الأحمال أو قضاء بعض الضرورات . وإذا ما سئل هؤلاء الحراس لماذا لا تقومون بالواجب، قالوا : «أمر يوك»أي ليس عندنا أمر . . فما أقبح العذر» (٣٠) .

وهكذا نرى صورة البدوي في أواخر العهد العثماني، صورة الفاتك المجرم قاطع الطريق، وشخصيته هي شخصية البدوي المستقل المعتدّ بنفسه، الذي لا يدين للدولة بقدر مايدين للقبيلة . ومن هنا نستطيع أن نقدّر تلك الجهود العظيمة التي بذلها جلالة الملك عبدالعزيز رحمه الله، للتغلب على مشاكل البدو وإخضاعهم للسلطة، وقد عانى منهم الأمرّين في بداية فتوحاته وإصلاحاته في قلب الجزيرة العربية وماجاورها من مناطق . وقد دهش الريحاني الذي زار الملك عبدالعزيز سنة ١٩٢٢م، أي قبل فتحه الحجاز، عندما رأى استتباب الأمن والعدل في جميع المناطق الخاضعة له، فقد استطاع الملك عبدالعزيز منذ ذلك الوقت أن يغير من تلك الصورة المنفرة للبدوي الشرس الخارج على السلطة، وأن يجعله مواطنا صالحا يدين للدولة ويحترم النظام . وقد سار الملك عبدالعزيز خطوات طويلة ومراحل كثيرة في سبيل الوصول إلى هذه الغاية عزيزة المنال . ومن أهم هذه الخطوات ماقاله عبدالعزيز للمندوب السامي البريطاني في مؤتمر العقير عن العشائر في العراق :

« . . . . العشائر يا حضرة المندوب لا يفهمون إلا بالسيف، وإلا فهم يركبون على ظهر الحكومة ويسوقونها والبلاد إلى مهاوي الخراب . .أشهروا السيف يرتعدوا، يتأدبوا، اغمدوا السيف ينهبوا ويقتتلوا، ويتقاضوكم مع ذلك الخوة » (٣١) ولكن عبدالعزيز لم يعتمد في الحقيقة على السيف وحده في تغيير شخصية البدوي واستمالته واستئناسه، بل اعتمد كذلك على وسائل أخرى، أهمها زرع العقيدة في نفسه وجعله جنديا مخلصا للذب عنها ونشرها وترسيخها (أخو من طاع الله)، وربطه بالأرض يفلحها ويتعيش منها، وإشاعة الأمن والعدل وتطبيق الشريعة الإسلامية .

٢ - صورة الحاكم :

إن الرحلة الوحيدة التي يغلب عليها الطابع السياسي خلال هذه الفترة هي رحلة أمين الريحاني «ملوك العرب» التي قام بها بعد الثورة العربية بحوالي سبع سنوات، وقبيل فتح الملك عبدالعزيز للحجاز بحوالي سنتين فقط . فالريحاني، كما يدل عنوان كتابه، معني في الدرجة الأولى بمقابلة الزعماء العرب، واستقصاء الحالة السياسية العامة في الجزيرة العربية، ومصير المشرق العربي وشعوبه بعد الحرب العالمية الأولى، وبعد الثورة على الأتراك وانهيار الخلافة العثمانية .

ومع ذلك، فإن الرحلات الأخرى لا تخلو من إشارات إلى النواحي السياسية، كما نرى في كتاب «مرآة الحرمين» الذي حمل فيه مؤلفه - إبراهيم رفعت - حملة شديدة على فساد الحكم في أواخر العهد العثماني في الحجاز ولا سيما عون الرفيق الذي يقول عنه : «يلقب شريف مكة بسيد الجميع تميزاً له عن بقية الأشراف، وهو الحاكم الذي لا ينازع في أمر ولا يرد له قول، ينفي من شاء ويحبس من شاء ويعاقب من شاء، بيده عقد الأمور وحلها، وكل الحكام بمكة طوع إشارته من كبيرهم أحمد راتب باشا المشير إلى صغيرهم، فإن عارضه واحد منهم عزل في الحال . لأن الشريف له يد قوية في الدولة، فأي الأمور طلب أجيب إليه، بل غالب الشكايات منه ترد إليه ليفصل فيها بما شاء من شرع أو هوى، ولا معقب لحكمه . فالويل كل الويل لمن شكا . نعم هذه اليد المستبدة تناسب حال الأعراب الأشرار الذين لا ترغمهم إلا القوة ولا يقومهم إلا البطش بهم . ولكن لو ضمت إلى القوة العدالة لكبح الأشرار عن سيئاتهم، والتف الناس حوله بأجسامهم وقلوبهم، لأن للعدل من السلطان على النفوس ماليس للقوة الغاشمة » (٣٢) .

وفي الوقت الذي يحمل فيه إبراهيم رفعت علي الشريف عون الرفيق هذه الحملة الشديدة، فإنه يثنى ثناءاً عاطرا على الشريف علي باشا إذ يقول عنه : «أما الشريف علي باشا فله سلطة على الأعراب وله في نفوسهم مكانة واحترام . ولذلك، لا يردّون له قولا ، وهو الذي يقابلهم إذا حضروا ويفاوضهم إذا عملوا ما لايرضاه الشريف وود إقلاعهم عنه . . »[٣٣] .

ويتحدث إبراهيم رفعت في موضع آخر من كتابه عن فداحة الظلم الذي لحق بالناس من استبداد عون الرفيق وجوره، ويشير إلى ثلاث رسائل كتبت عنه في ذلك العهد، الأولى بعنوان : «ضجيج الكون من فظائع عون» كتبها السيد محمد الباقر بن عبدالرحيم العلوي، في ٢٩ ذي الحجة سنة ١٣١٦هـ، يستنجد فيها بالسلطان عبدالحميد، والثانية بعنوان :«خبيئة الكون فيما لحق ابن مهني من عون» للشريف محمد بن مهني العبدلي، وكيل الإمارة بجدة وأمير عربانها . أما الثالثة فهي قصيدة أمير الشعراء أحمد شوقي التي نشرت بجريدة «اللواء» سنة ١٣٢٢هـ - ١٩٠٤م . وقد أورد إبراهيم رفعت نصوص هذه الرسائل . وقصيدة شوقي هي القصيدة المعروفة بـ «صدى الحجيج» والتي يقول في مطلعها :

ضجّ الحجاز وضجّ البيت والحرم
واستصرخت ربّها في مكة الأمم
قد مسّها في حماك الضرّ فاقض لها
خليفة الله أنت السيّد الحكم
تلك الربوع التي ريع الحجيج بها
اللشريف عليها أم لك العلم؟
أهين فيها ضيوف الله واضطهدوا
إن أنت لم تنتقم فالله منتقم

والقصيدة جميعها تصوير للمآسي التي تحدث في الحجاز وللحجّاج من جراء انعدام الأمن واستبداد الحكومة . وفيها تحريض للخليفة العثماني على تأديب الشريف أو خلعه من الإمارة . ويقول إبراهيم رفعت : إن عون الرفيق كان يتقاضى من الحجاج سنويا مائة وخمسين ألف جنيه «يأخذها ظلما وعدوانا » [٣٤] . والحقيقة أن حملة المؤلف لا

تقتصر على عون الرفيق وحده بل تمتد لتشمل كذلك أسلافه في الماضي حيث التنافس على أشده بين أفراد الأسرة الواحدة، وقد ترتكب أشنع الجرائم في سبيل الفوز بالحكم (٣٥) .

لقد تولى عون الرفيق إمارة مكة في سنة ١٢٩٩هـ حتى وفاته بالطائف سنة ١٣٢٣هـ، حيث تولى الإمارة بعده علي باشا ابن عبدالله، ثم عبدالإله باشا ابن محمد بن عون سنة ١٣٢٧هـ، وكان مقيما بالآستانة وتوفي بها قبل أن يصل إلى مكة، فانتقلت الإمارة بعده في نفس العام إلى الشريف حسين باشا ابن علي بن محمد بن عون . وكان هو الآخر مقيما في الآستانة منذ سبع وعشرين سنة (٣٦) .

لقد قام البتنوني برحلته - مرافقا للخديوي عباس حلمي - سنة ١٣٢٩هـ، أي بعدأكثر من عامين على تولي الشريف الحسين بن علي إمارة مكة . وقد أثنى المؤلف علي الحسين وقال إنه «قام بالأمر حق قيام بهمة لا تعرف الملل، وضرب على أيدي قبائل العرب الذين كانوا يتحفزون للخروج على الدولة . . »(٣٧) . ويقول أيضا : «ولقد تشرّفت بمعرفته (الحسين) مدة وجودنا بمعية الجناب العالي بمكة فوجدته أنيسا وديعا كريم الأخلاق، حسن السجايا، قد جمل الوقار رؤياه، وكمل الأدب جلال محياه . . » (٣٨) .

أما الإمام محمد رشيد رضا فقد قدم إلى الحجاز في الأيام الأولى من الثورة العربية التي قام بها الشريف الحسين ضد الأتراك سنة ١٣٣٤هـ - ١٩١٦م، وشاهد الأسرى من جنود الأتراك بعد سقوط الطائف مخفورين في طريقهم إلى جدة . ولكن المدينة المنورة مازالت في ذلك الوقت محاصرة في أيدي العثمانيين . وعلى الرغم من تأكيد الإمام إنه إنما شدّ الرحال إلى الأراضي المقدسة لأداء فريضة الحج فحسب، فإنه في الواقع لا يخفي كراهيته لرجال الاتحاد والترقي وتأييده للثورة وإعجابه بشخصية الحسين، وإن كان إعجابا يشوبه التحفظ لعدم وضوح الرؤية في تلك المرحلة المبكرة والغامضة من الثورة . وقد أورد المؤلف نص الخطبة السياسية التي ألقاها في منى بين يدي الشريف ورجال دولته وبقية الوفود من العرب والمسلمين . وفي هذه الخطبة يبيّن الإمام موقفه واضحا من رجال الاتحاد والترقي، فهم - في نظره - «أوباش من الملاحدة المارقين قد وصلوا إلى ماوصلوا إليه بكيد يهود سلانيك . وشركاؤهم في النمسة وألمانيا أقوى أنصارهم، ولذلك نرى أكبر همهم جمع المال، فلاهم على دين هذه الدولة فيغاروا عليه، بل هم يقاومونه ويهدمونه، ولا هم من أصل راسخ فيها فيكونوا أحرص من (هكذا) حياتها من أبناء سلاطينها وأساطينها . . » (٣٩) .

والحقيقة أن محمد رشيد رضا في خطبته هذه يحاول أن يبرّر انتفاضة الحسين على الأتراك العثمانيين بعد أن لمس انقسام الناس بين مؤيد ومعارض . وهو يبني مبرراته على شواهد من التاريخ وشواهد أخرى من الأحداث المعاصرة . فالتاريخ يقول : إن الضعف قد دبّ في جسد الدولة العثمانية منذ مايقرب من ثلاثة قرون، والدليل على ضعفها تجرؤ محمد علي باشا - وهو لا يعدو أن يكون والياً على مصر - على فتح سوريا والتوغل بجيوشه إلى حدود الأناضول . وكان باستطاعته أن يستولي على الآستانة لولا معارضة الدولة البريطانية . ومن دلائل ضعفها تلاعب أركان الدولة بسلاطينها يخلعون من يشاؤون . فقد خلعوا السلطان عبدالعزيز - الذي خلف أخاه السلطان عبدالمجيد سنة ١٢٧٧ هـ وقتلوه . وولوا بعده السلطان مرادا ثم خلعوه ونصّبوا السلطان عبدالحميد لأنه «كان عاهدهم على العمل بالقانون الأساسي الذي قلدوا فيه الدول الأوربية ظنا منهم بأنهم لا يعتزون إلا بما اعتزت به من الحكم النيابي» . أما الأحداث المعاصرة فقد أشرنا إلى موقف الإمام من جمعية الاتحاد والترقي واتهامه لزعمائها بالإلحاد والتواطؤ مع اليهود، وقد اتهمهم أيضا بنهب أموال الدولة والتسبّب في هزيمتها وإضاعة الكثير من ولاياتها مثل بلغاريا والبوسنة والهرسك وطرابلس الغرب ومكدونية والبانية . ويخلص الشيخ محمد رشيد رضا إلى القول بأن الشريف الحسين هو الرجل الوحيد بين زعماء المسلمين الذي نهض لتدارك الخطب وعمل مايمكن عمله في هذه الظروف الصعبة وهو «إنقاذ الحجاز، مهد الاسلام ومشرق نوره، مما نزل به من البلاء والشقاء، ثم إنقاذ غيره مما يمكن إنقاذه من البلاد العربية، ليكون ذلك بيئة لحفظ الاستقلال الإسلامي، وعدم زواله بما يخشى ويتوقع أن يحل بالدولة العثمانية والعياذ بالله تعالى . .» (٤٠) .

يمكننا القول، إذن، أن إعجاب محمد رشيد رضا بالشريف الحسين، في مبتدأ قيامه بالثورة ضد الأتراك، كان نابعا في الدرجة الأولى من عاطفته الدينية، وكان متفائلا - كالحسين نفسه - بوعود بريطانيا العظمى، وما كان ليعلم، بطبيعة الحال، مايحاك من دسائس ومؤامرات للإسلام والأمة العربية . وقد خص المؤلف جزءا صغيرا من رحلته لبيان «صفات الأمير وشمائله» . ومما قاله عنه : إنه كريم مضياف عزيز النفس، شديد الاعتداد برأيه، ولكنه يقول عنه أيضا إنه شديد الحذر، سيء الظن «ولذلك، تراه ينظر في كل شيء

من شؤونه الخاصة وشؤون البلاد العامة، حتى أمور المنزل وشؤون الضيوف والوفود ونفقاتهم، ومصالح البدو وصلاتهم، وقد أعطاه الله تعالى قوة غريبة فهو يشتغل بالنظر في ذلك كله عامة النهار ولا يشكو مللا ولا تعبا . . » [٤١] . ويقول عنه أيضا إنه شديد اليأس من الدولة العثمانية وإن «له ثقة بالدولة البريطانية وتقديرا لقوتها وعظمتها لاحد لهما ولا سلطان لشيء عليهما » . ويشير إلى ناحية مهمة في شخصية الحسين تؤكد ماذكره سابقا عن سوء ظنه وشدة حذره، إذ يقول إن «ماشاهده (الحسين) من التطور والتحول في سياسة الدولة العثمانية وإفضاء ذلك إلى جعلها كالكرة في أيدي جمعية الاتحاد والترقي قد ضاعف ما في فطرته وتربيته من كراهة الآراء والأفكار التي نشأ عنها ذلك الفساد وشدة الحذر من أصحاب أمثال هذه الآراء والأفكار . . » [٤٢] .

وحين نصل إلى سنة ١٩٢٠م - تاريخ الرحلة التي قام بها خير الدين الزركلي إلى الحجاز - نجد أن الأمور قد تكشفت بما فيه الكفاية في معاهدة «سايس بيكو» التي اقتسمت فيها بريطانيا وفرنسا تركة الرجل المريض منذ مطلع هذا القرن، وفي وعد بلفور سنة ١٩١٧م الذي منح اليهود وطنا قوميّا في فلسطين . وقد ثبت الآن، بما لا يدع مجالا للشك، سراب ذلك الوهم الكبير الذي كان يعيشه الشريف الحسين والمتحمسون لثورته من أمثال محمد رشيد رضا ، أو كما قال الزركلي : «عاهدوه على سورية واستعمروها ، وعلى العراق واحتلوها ، وعلى فلسطين وهودوها ، وعلى الجزيرة وقسّموها . . » الخ [٤٣] . لقد أخرج الفرنسيون ابنه فيصل من سوريا ، ولم يدم حكمه فيها سوى أشهر معدودات، فبادر الى إرسال ابنه عبدالله إلى الأراضي التي حول سوريا والتي لم يحتلها الفرنسيون، وأعلن الحسين أن ابنه سيكون أميرا على معان، آخر الحدود الحجازية من ناحية الشمال[٤٤] . أما فيصل فقد فرّ من الشام إلى إيطاليا ثم إلى لندن لمفاوضة الإنجليز في ملك العراق [٤٥] .

والزركلي نفسه جاء فاراًّ من الفرنسيين، لاجئا إلى الحجاز بجواز سفر هاشمي . يصف أول دخوله على الحسين في قصره بمكة، وكان لايزال بملابس الإحرام :«دخلت على جلالة الملك فنهض قائما فأقبلت على يده لأقبلها ، فبسط يديه قابضا بهما وجهي فقبلتهما من باطنهما ، وماكنت عالما بشيء من أسرار تقبيل اليد في ذلك القصر . وكان أول ماكلمني به جلالته قوله : بلادكم يا ابني! هذه بلادكم يا ابني! فدعوت له . وأمرني بالجلوس فجلست» [٤٦] .

لقد أقام الزركلي أكثر من ثلاثة أشهر في قصر الحسين، يراه، كما يقول، كل ليلة أكثر من ساعتين، يستمع إليه مع المستمعين في مجلسه، ويكلمه مع المتكلمين «فعرفته في سروره ورضـاه، كما عرفته في كدره وغضبه . ورأيته في جد الأمر وقل أن رأيته في لعبه» [٤٧] . وعقد المؤلف فصلا مهمّافي رحلته بعنوان :«في ضيافة الملك»، تحدث فيه بما رآه وسمعه، بادئا بوصف دار الحكم - مقره أثناء إقامته - ثم جاء بنبذة عن مولد الحسين ونسبه ونشأته وتعليمه وأساتذته وزواجه وأولاده وهواياته . ويقول عن صلابته وعناده وعلاقته بالاتحاديين قبل الثورة :«في نفس الملك حسين قوة وصلابة ليس من السهل التغلب عليهما، وهو عنيد شديد لا ينقاد بالعنف ويصعب أن ينقاد باللين . وقد ظهرت صفاته هذه بارزة مجسّمة منذ ولي إمارة مكة وحطّ في أم القرى رحاله . فإنه طارد خصومه وتسلّم مقاليد الأمور بسهر دائم ويقظة وتحفظ، وأبى أن يمشي مع جماعة الاتحاديين على العميـاء، فضـاق به ذرعهم وأخذوا يتحينون له الفرص للقضاء على نفوذه . . ويلوح لي أن اختلافه مع الاتحاديين بدأ منذ خلعوا السلطان عبدالحميد، وقد كان الشريف - ومازال - يثني عليه . ويعد في مقدمة مثالب القوم وثوبهم بسلطانهم، وقد حاولوا كثيرا أن ينشئوا فروعا لحزبهم في مكة وجدة فناوأهم الشريف فأخفقوا . . » [٤٨] .

وتحدّث الزركلي عن معاناة الحجاز ومجاعته أثناء الحرب العالمية الأولى، وعن ضغوط الاتحاديين على الشريف وأعوانه، وعن استغلال الانجليز لهذه الظروف الصعبة التي كانت تعيشها البلاد، إضافة إلى حالة القمع التي كانت تمارسها الحكومة التركية في كل من سوريا والعراق «فمدّ الإنكليز أيديهم إليهم من بعد، يوهمونهم العطف والإشفاق ويمنّونهم بالإنقاذ والتحرير . . » . وأشار المؤلف إلى الرسائل المتبادلة بين الشريف وبين السير هنري مكماهون، النائب البريطاني الأكبر بمصر، وبعضها مالا يزال مطويا آنذاك، ولكنه أورد نص إحداها، وهي موجهة من مكماهون إلى الشريف، كنموذج لأسلوب المداهنة والخداع الذي كان يستخدمه الإنجليز مع الزعماء العرب [٤٩] .

وعرض الزركلي لأحداث الثورة العربية منذ انطلاق رصاصتها الأولى «الساعة ٩ والدقيقة ١٢ عربية قبيل فجر السبت ٩ شعبان سنة ١٣٣٤هـ » حتى انعقاد الهدنة بين الحلفاء وخصومهم يوم ٥ صفر سنة ١٣٣٧هـ الموافق ١١ نوفمبر ١٩١٨م . ونرى الزركلي غاضبا لنقض الحلفاء عهودهم ومواثيقهم ولمحاولاتهم ترضية الحسين بإمارات وممالك لبنيه،

وكأن الثورة العربية التي شارك فيها الزعماء العرب إنما قامت لهذه الغاية . يقول :«هم (الإنجليز) يعملون أو سيعملون على إرضائه أو إسكاته، فيؤولون مالا مناص لهم من الاعتراف به من عهودهم، ويتقدمون إليه يحملون تيجانا خيالية وإمارات وهمية لبعض بنيه، كأن مصلحة العرب هي أن ينصب بنوه ملوكا وأمراء . وكأن العرب، وفي جملتهم الملك حسين وأبناؤه، ماثاروا ولا قاتلوا إلا لتتحول ألقاب أفراد فيهم من شريف إلى أمير، أو من أمير إلى جلالة فلان»(٥٠) .

أما أمين الريحاني الذي قابل الملك حسين في أواخر أيامه، سنة ١٩٢٢م، فإنه يعطي عنه صورة لا تختلف كثيرا عن تلك التي رأيناها عند كلّ من الإمام محمد رشيد رضا وخير الدين الزركلي، ولا سيما في وثوق الحسين بنفسه واعتداده برأيه وشدة حذره وسوء ظنه بالآخرين . غير أن الريحاني، وهو المسيحي المتعصّب لقوميته وعروبته، لا يؤمن أصلا بثورة الحسين القائمة في أساسها على الدين، كما جاء في منشور الاستقلال الذي أصدره الحسين في ٥ رمضان سنة ١٣٣٤هـ، الموافق ٢٧ حزيران سنة ١٩١٦م، والذي حمل فيه على الدستور العثماني المخالف للكثير مما جاء في نصوص الشريعة الإسلامية . ويتساءل الريحاني في مرارة وتهكم عن جدوى تلك الوحدة العربية بالنسبة للعرب غير المسلمين ويقول :«أفما حان لنا، أولا يحق لنا أن نتساءل نحن العرب غير المسلمين ماذا يهمنا من نهضة أساسها (الدين) وأي دخل لنا في ثورة أعلنت في ذاك السبيل ولتيك الأسباب الدينية؟» (٥١) .

لكن الريحاني يقدّم صورة مختلفة تماما لـ «السلطان» عبدالعزيز آل سعود حين التقى به لأول مرة في النفود - بين العقير والأحساء - صورة تمتزج فيها ملامح الصحراء الأخاذة بملامح البطل الفارس، وفي جوّ من الشاعرية والبساطة المتناهية : « . . . وكان الليل صافي الجبين، رقيق الجلباب، شأنه في البادية، تدنو النجوم في سمائه من الأرض بريقا، وتسمع فيه الأصوات كأنها على طول المسافات الأبواق في الغابات، لها دوي لطيف ينجد ويغور وصدى يتموج كالنور . . » (٥٢) . ويصف قدوم السلطان وماتخلله من رغاء الإبل وأصوات الخيزران ونصب الخيام .

لقد دهش الريحاني في هذا اللقاء الأول بالملك عبدالعزيز بتواضعه الجم وبساطته وكرم ضيافته . ويتساءل مستغربا، بعد أن مرّ بتجارب سابقة مع الحسين والإدريسي والإمام

يحيى :«أين أبهة الملك وفخفخة السلاطين؟ إنك لا تجدهـا في نجد وسلطانها . وإن أول مايملكك منه ابتسامة هي مغناطيس القلوب . لست أدري كيف حييته وأنا في دهش وابتهاج من تلك المفاجأة الكبيرة، ولكني أذكر أنه حيّاني باسما بالسلام عليكم وظل قابضا على يدي حتى دخلنا الخيمة، فجلس والكور إلى يمينه يستند إليه، والنار قبالته تنير وجهه» (٥٣) .

ولكن تلك البساطة التي أعجب بها الريحاني في شخصية الملك عبدالعزيز تخفي وراءها ذكاءً فطريا لمّاحا وفراسة نافذة، وهاهو يضع النقاط على الحروف فيما يتعلق بمهمة الريحاني ومايثار حولها من تساؤلات، إذ يقول له في صراحة تامة ومواجهة مفاجئة :«قالوا : إنك أميركي جئت تنشر الدين المسيحي في البلاد العربية، وقالوا : إنك تمثل بعض الشركات وجئت تبغي الامتيازات . وقالوا إنك قادم من الحجاز وأنك شريفي تسعى لتحقيق دعوة الشريف . وقالوا غير ذلك . فقلنا إذا كان في الرجل مايضر فنحن نعرف كيف نتقيه، وإذا كان فيه ماينفع فنعرف أيضا كيف ننتفع . ونحن أعلم يا حضرة الأستاذ بمهمتك، بارك الله فيك»(٥٤) . ولكن هذه المعلومات التي يسردها عبدالعزيز على مسامع الريحاني لا تعتمد على الفراسة فقط، بل تعتمد في الدرجة الأولى على النظرة العلمية الدقيقة في جمع المعلومات واستقصاء الأخبار عن هؤلاء الأعراب الذين يفدون إليه من كل صوب وحدب . ويبدو أن الملك عبدالعزيز قد توسّم في الريحاني خيرا كثيرا أو أنه أراد أن يختبره ويتفحّص سريرته، فأطلعه على بعض الأمور السرية التي كانت تدور بينه وبين الأشراف، ومنها خطاب الشريف حسين الذي يطلب فيه الولاء والصلح، بشرط أن تعاد تربة والخرمة إلى الحجاز، وان يعاد إلى ابن الرشيد ملكه في حائل . ويطلب عبدالعزيز من الريحاني رأيه في هذا الموضوع :

«ما رأيك يا حضرة الأستاذ؟ لا تقل لي : أن لا دخل لك بالسياسة، وأن سياحتك في بلادنا سياحة علمية فقط «حنّا» نفهم . ومرّ يده على لحيته وهو يبسم بسمته الخلاّبة . لا تخدعنا يا أستاذ . لا تغزل عنا في المقاصد والكلام، أصدقنا الخبر . فقد قابلت الشريف وحدثته، وقابلت الإمام يحيى والإدريسي والملك فيصل، وحدثتهم كلهم . فأعطني الآن رأيك . أبغى نصيحتك . تكلّم . ويكفي أن تقول رأيي تسذا «كذا» . ولا جزم فنقبله منك . .» (٥٥) .

لقد أعجب الريحاني بالملك عبدالعزيز إعجابا لا حدّ له، وقد ساح في نجد ولمس مقدار العدل الذي حققه في نطاق الشريعة الإسلامية التي لا تعرف الانحياز ولا المحاباة . يقول : «أما أحكام الشرع فمعروفة، إلا أنها تنفّذ في نجد بلا تردد ولا محاباة ولا مرافعات لولبيّات طويلات . حكم ابن سعود لا يعرف في سبيل العدل كبيرا أو غنيّا . كل الأيدي الأثيمة عند الحاكم سواء، وكل الرؤوس سواء عند السيّاف . . » (٥٦) .

ونحن نجد أن هذا الإعجاب بشخصية الملك عبدالعزيز وبأعماله وسجاياه لا يقتصر على الريحاني فقط، بل هو شامل لجميع الذين قابلوه وعرفوه عن كثب . وهاهو شكيب أرسلان الذي التقى بالملك عبدالعزيز سنة ١٩٣٠م أي بعد الريحاني بحوالي ثماني سنوات، يقول عنه : « . . ثم شاهدت جلالة ملك هذه الديار - خادم الحرمين الشريفين عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن سعود - وكان في جدة ذلك اليوم، فوجدت فيه الملك الأشم الأصيد، الذي تلوح سيماء البطولة على وجهه، والعاهل الصنديد الأنجد الذي كأنما قدّ ثوب استقلال العرب الحقيقي على قدّه، فحمدت الله أنّ عيني رأت فوق ما أذني سمعت، وتفاءلت خيرا في مستقبل هذه الأمة . . » (٥٧) .

أما محمد حسين هيكل فقد التقى بالملك عبدالعزيز مرتين خلال رحلته التي سجلها في «منزل الوحي» سنة ١٩٣٦م، وقد عبّر عن إعجابه به وإعجاب الآخرين، ولا سيما في مسألة الأمن التي كانت من المسائل أو المشاكل الرئيسية والملحّة في الأراضي المقدسة منذ زمن طويل، وقد استطاع عبدالعزيز أن يحلها بشكل حاسم ومشرّف . ويروي هيكل إعجاب الكثيرين من المفكرين العرب والأجانب بذلك البطل العظيم والزعيم الفذ إذ يقول :

« . . . ولقد لقيت إذ ذاك غير واحد من الصحفيين المشهود لهم بالاتزان وبدقة الحكم على الأشياء والأشخاص، فما كان أشد عجبي حين سمعت من أحدهم «فون فيزل» الألماني المعروف، مبالغته في الثناء على ابن السعود إلى حد نعته إياه بأنه «بسْمرْك الشرق»، هذا وكان فون فيزل قد لقى ابن السعود وتحدّث إليه وعرف مرامي سياسته» (٥٨) .

حقّا إن الوحدة التي حققها جلالة الملك الراحل عبدالعزيز آل سعود، خلال الثلث الأول من هذا القرن، بين أقطار الجزيرة العربية - نجد والحجاز والأحساء وتهامة وعسير - كانت وحدة فريدة وخطوة رائدة، ومبكّرة جداً بالنسبة لدعاة الوحدة أو القومية العربية . وقد

كانت البلدان العربية الأخرى بين الحربين ترزح تحت الاحتلال البريطاني والفرنسي بل والإسباني والإيطالي، فكان التحرر الوطني هو المطلب الأساسي، أما الوحدة العربية فقد كانت حلما بعيدا حتى في أذهان الروّاد والمفكرين الأوائل، من أمثال محمد كرد علي وساطع الحصري . لذلك فقد ارتبط اسم عبدالعزيز رحمه الله، عند بعض الكتّاب الذين تحدثوا عن سيرته وأعماله بأسماء الأبطال الوحدويين، وقورن بينه وبين أولئك الزعماء الوطنيين والقوميين في أوربا القرن التاسع عشر، أمثال بيسمارك وغاريبالدي .

٣ - صورة الحضري المثقف :

لم تكن حال التعليم في مكة والمدينة آخر العهد العثماني مما يساعد على ظهور طبقة متميزة من المتعلمين أو المثقفين . وهاهو إبراهيم رفعت، الذي زار الحجاز سنة ١٩٠١م يلاحظ إهمال التعليم وقلة المدارس في مكة المكرمة، ويعزو ذلك إلى عقلية الشريف عون المتحجّرة واستبداده «لأنه يرى في العلم تنويرا للأفكار ومطالبة بالحقوق وضربا على أيدي الظالمين وجهادا للتخلص من المستبدّين وهو عليم بنفسه خبير بسيرته» (٥٩) . فلم يبق في مكة المكرمة آنذاك سوى ست مدارس أولية وبعض الكتاتيب . وأشهر مدرسة بها هي الصولتية التي أسسها الشيخ رحمة الله الهندي، ويدرّس فيها بعض مواد الدين واللغة العربية والحساب، وينفق عليها من تبرعات الهنود (٦٠) أما المكتبات فقد كانت هي الأخرى في حالة يرثى لها، إذ لم يبق منها سوى مكتبتين صغيرتين، إحداهما في باب أم هانيء والأخرى في باب الدريبة، ولا تتجاوز محتوياتها بعض الكتب النحوية والفقهية والأدبية . (٦١) وبمكة مطبعة الولاية، وتصدر فيها جريدة رسمية بالتركية والعربية اسمها «حجاز» تعنى بأخبار الحكومة وإعلاناتها . (٦٢)

أما المدينة المنورة فلم تكن أحسن حالا من مكة المكرمة من حيث عدد المدارس الأولية والكتاتيب، أما من حيث المكتبات فقد كان بها مجموعة لا بأس بها، منها مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت ومكتبة للسلطان محمود ومكتبة للسلطان عبدالحميد ومكتبة بشير أغا . وفي المدينة جريدة اسمها «المدينة المنورة» تصدر بالتركية والعربية وتطبع على البالوزة، ولكنها لم تكن منتظمة في صدورها (٦٣) .

أما حلقات الدرس في الحرمين الشريفين فقد اضمحلت وتدنّى مستواها في أواخر العهد العثماني إلى حد كبير . يقول البتنوني عن التدريس في الحرم المكي : «ويدرس في

الحرم الشريف بعض العلوم العربية والتفسير على الطريقة القديمة العقيمة . ويقدر عدد الطلبة ببضع مئات جلّهم من الجاوة الذين يفرون إلى هذه البلاد من المظالم التي تتاقط على رؤوسهم من حكومة بلادهم » (٦٤) .

وإذا كانت حالة التعليم قد انتعشت قليلا بعد الدستور العثماني وبعد الثورة العربية في منطقة الحجاز، فإن الأمور لم تتغير بشكل منتظم وملحوظ إلا بعد الوحدة التي حققها الملك عبدالعزيز لهذه المناطق الضعيفة المتناثرة . ومن ثم فإننا لا نستغرب كثيرا حينما نجد أن الرحّالة العرب الذين زاروا تلك المناطق خلال الثلث الأول من هذا القرن الميلادي، يسخرون من تلك الثقافة المتخلفة ويرون فيها امتدادا لعصور الظلام التي لم تخرج منها جزيرة العرب إلا في فترة متأخرة . يروي إبراهيم رفعت قصيدة طويلة لأحد أئمة المالكية بالمسجد النبوي يندّد فيها بما فعله بعض العربان بالمحمل الشامي سنة ١٢٩٥هـ . ويقول رفعت : «وإنا لم نذكر هذه القصيدة - إن صح أن تسمى قصيدة - مع كثرة الخطأ فيها إلا لما حوته من تفصيل الحادث، ولنقدم اليك نموذجا من شعر الحجازيّين الغث في عصرنا الحاضر » (٦٥) ويورد رفعت كذلك نصوصا من خطابات بعض شيوخ القبائل، وذلك لإطلاع القارىء على مستوى لغتها وأسلوبها . وبعد أن يأتي بنص خطاب سليمان باشا ابن رفادة - شيخ مشائخ عربان بلي - يقول : «وإنما ذكرنا لك هذا الكتاب بنصّه كما ذكرنا أمثاله لنقفك على لغة العرب وكتابتهم الآن، وأين هما من لغة أسلافهم الأقدمين الذين بلغوا من الفصاحة غايتها . . » (٦٦) .

ولم تكن الثقافة في العهد الهاشمي أفضل كثيرا منها في أواخر العهد العثماني، وإن رأينا فيها شيئا من التحسّن لوجود نخبة جيدة من الأدباء العرب في صحيفة القبلة من أمثال محب الدين الخطيب وفؤاد الخطيب والطيب الساسي . وربما استمر هذا الضعف العام في الثقافة المحلية حتى بدايات العهد السعودي في الحجاز، إذ يقول المازني في «رحلة إلى الحجاز» سنة ١٩٣٠م عن حفلة خطابية حضرها بوادي فاطمة : « . . . ولما جاء الأمير (فيصل) استؤنفت الخطب، ودعى زميلنا خير الدين أفندي الزركلي الشاعر السوري، فأنشد قصيدة حماسية هي كل ما خرجنا به في يومنا - بل في رحلتنا كلها - من الكلام الرصين الجيد» (٦٧) . وكان الريحاني قد قال قبل ذلك شيئا من هذا عن حال الشعر الفصيح في كل من نجد وتهامة . يقول عن الأولى :«ولايزال للشعر مقام في نجد

وإن رثت حواشيه وتفاقم اللحن فيه» [٦٨] . ويقول عن الثانية : « . . . واليوم لا تجد في تهامة كلها شاعرا واحدا ينظم باللغة الفصحى» [٦٩] .

ولكن هذه الحالة العامة من الضعف العلمي والثقافي لم تمنع هؤلاء الرحّالة من الحديث عن بعض المثقفين المحليين والعرب الذين التقوا بهم صدفة أثناء تجوالهم أو إقامتهم في بعض المدن . ومن ذلك ماقاله إبراهيم رفعت عن الشيخ سليمان بن عبدالله البسام «وكيل أمير نجد» في مدينة جدة الذي أتحفهم بضيافته و «بلذيذ حديثه وشعره» [٧٠] . ويتحدث الزركلي في رحلته عن مجموعة من المثقفين الذين تعرّف عليهم في كل من جدة ومكة والطائف، ومنهم قسطنطين ينّي ويوسف ياسين، وهما من الأدباء السوريين الذين انضموا إلى الثورة العربية[٧١] ، وكلٌّ من الشيخين : عثمان بن عبدالرحيم قاضي، وعبدالله بن أبي بكر بن علي كمال . يقول عن القاضي : إنه من أدباء الطائف، وقد قرأ له قصيدة يرحب فيها بالأمير زيد عند عودته من إيطاليا إلى مكة المكرمة [٧٢] ويقول عن القاضي عبدالله كمال إنه «أفقه من في هذه المدينة (الطائف) وأعلمهم بالأدب وفنونه» ويورد نموذجا من شعره إذ يقول :

ترفّق أيها الحادي
وعجْ بي نحوهم عج بي
كرام قد عهدناهم
بذاك السفح والشعب
أريج المسك ريّاهم
وريح المندل الرطب[٧٣]

ويقول الزركلي عن الشيخ صبحي الحلبي - وهو أستاذ في المدرسة الخيرية الهاشمية بالطائف - :« والشيخ صبحي يعد اليوم من أدباء الطائف، اطلعت على مجموعة من شعره فكان مما قرأته فيها قوله :

هذي الديار فقف بها يا حادي واعطف لحالي فرقتي وبعادي» [٧٤]

ويتحدث الريحاني عما سماه «نادي الصلاة» في مدينة جدة - خلال العهد الهاشمي - إذ يقول : «إنه ناد قليل الأعضاء ولكنهم كلهم حكماء، صغير الحلقة ولكنها حلقة نور صفي ليس فيه خيط واحد من الظلام . وهو ناد فريد في بابه لا رئيس له ولا بيت ولا

قانون . يجتمع أعضاؤه كل يوم عند الغروب على كثيب رمل قرب البحر خارج البلد، فيصلون المغرب أولا ثم يبادرون إلى كرة من حديد فيتمرّنون ويتبارون في رميها، ثم يجلسون في حلقة على الرمل ويتحدثون في الأدب والشعر والتاريخ» .

وأعضاء هذا النادي - كما يقول الريحاني - سبعة هم : الحاج زينل علي رضا، والحاج عبدالله علي رضا - «منشيء المدرسة العمومية في جدة» - والشيخ محمد نصيف، والشيخ سليمان قابل - «رئيس البلدية» - وأخوه عبدالقادر، والشيخ محمد الطويل - «ناظر الجمارك في القطر الحجازي» - والملاّ حسين الشيرازي . ويقول الريحاني عن محمد نصيف إنه أديب جدة الأكبر وأمين الكتب فيها «فإن عنده مكتبة حافلة بالقديم والحديث من التآليف لا يقتنيها للعرض فقط بل لينتفع وينفع بها . يجيء الأدباء إلى دار الشيخ محمد كأنها دار الكتب العمومية فيعيرهم ما يشاؤون منها ويشتري مايعرضون من مخطوط أو مطبوع» (٧٥) .

وقد تكرر ذكر بعض أعضاء هذا «النادي» العجيب في رحلات لاحقة، فنجد أن المازني قد نوّه بثلاثة منهم هم : محمد نصيف (٧٦)، وعبدالله رضا «الزينلي» (٧٧)، ومحمد الطويل (٧٨) . ويقول عن محمد نصيف إنه «من وجوه جدة وكبار تجّارها، وأصله مصري، وله مكتبة خاصة هي أكبر مثيلاتها في الحجاز . وفي داره ينزل، على ماسمعنا، جلالة الملك عبدالعزيز حين يكون في جدة» (٧٩) . ومن المثقفين الآخرين الذين يذكرهم المازني : السيد عبدالوهاب - نائب الحرم - ويقول عنه «إنه بلا شك أبرع محدث وأظرف رجل عرفناه في الحجاز، وقد تعلّم في الآستانة وأتقن التركية والفرنسية فضلا عن لغته العربية»(٨٠)، وفؤاد حمزة الذي كان مديرا للشؤون الخارجية آنذاك . (٨١)

وممن ذكرهم أرسلان في رحلته من المثقفين مجموعة من الشخصيات اللبنانية والسورية والمصرية منهم «الدكتور محمود بك حمدي، رئيس الصحية الحجازية، وفؤاد بك حمزة، مستشار الخارجية، وفوزي بك القاوقجي، قائد القوة النظامية الحجازية، والسيد الطيب الهزّار، من رجال المعية الملوكية، ورشدي بك ملحس، محرر جريدة أم القرى» (٨٢) . وقد أشاد أرسلان بالشيخ عبدالقادر شيبي «كبير سدنة البيت الحرام» ويقول : إنه التقى به في مدينة الطائف وبينهما الكثير من الود والانسجام، ولم تنقطع علاقته به حتى بعد أن غادر المملكة إلى بلاده «بقيت المكاتبة بيني وبين الشيخ المشار إليه متصلة يتخلّلها النظم

والنثر ومقابلة الشيء بمثله من القافية والبحر، ولا عجب في فصاحة بني شيبة وهم لباب قريش وخلاصة العرب . . » [٨٣] .

أما هيكل فإنه يمتدح «عالم نجد» الشيخ عبدالله بن بليهد الذي تقدمت به السن وأنهكه السفر بين نجد والحجاز ولكنه لايزال «موضع التبجيل والاحترام من النجديين جميعا، من مليكهم عبدالعزيز بن سعود إلى أصغر صغير فيهم» [٨٤]، كما يشكر الأستاذ عبدالقدوس الأنصاري الذي أعانه على التعرف على بعض معالم المدينة المنورة أثناء زيارته لها . ويقول عن الأنصاري إنه صاحب كتاب «آثار المدينة المنورة»، وأستاذ الأدب العربي بمدرسة العلوم الشرعية [٨٥] . ويشير هيكل كذلك إلى مجموعة من الشخصيات الذين التقى بهم أثناء زيارته للمملكة العربية السعودية منهم : عبدالله فلبي وعبدالحميد الحديدي ومحمد صالح القزاز ومحمد سرور الصبّان . [٨٦] .

ويعجب أحمد حسين في رحلته التي قام بها إلى المملكة سنة ١٩٤٨م - بالأمير سلطان بن عبدالعزيز إعجابا شديدا، ويعتبره في طليعة الشباب السعودي المثقف، والمتطلع إلى التخلص من الجمود والتخلف، وقد كان الأمير سلطان في ذلك الوقت أميراً لمنطقة الرياض . يقول عنه : « . . . ولقد أتيح لي بعد ذلك أن اجتمع بالأمير سلطان أكثر من مرة، فإذا به ممن يصح وصفهم بنحلة الكتب أو نحلة العلم التي ترشف كل ما تصادفه منه في طريقها . فقد وجدت لديه كتبا في كل شيء، حتى القوانين المصرية، وجدتها عنده يطالع فيها، ووجدت كتابا في القانون الدولي لعلي باشا ماهر لا أظن أن كثيرين من أبناء الجيل الجديد في مصر يعرفون من أمره شيئا، ووجدت كل ما أنتجته المطابع المصرية والسورية والعراقية . . ووجدت فوق ذلك محاولات الأمير لتعلم اللغة الإنجليزية، يتلقى دروسها على يد أمينه السيد عبدالله أبو الخير [٨٧]، ووجدت منه تحرّرا في التفكير إلى حدّ أدهشني وأذهلني . . » [٨٨] .

وماقاله أحمد حسين عن الأمير سلطان بن عبدالعزيز، في حرصه على اقتناء الكتب ومتابعته للفكر الجديد وتطلعه إلى العلم والمعرفة، هو ماسبق أن توقف عنده هيكل طويلا سنة ١٩٣٦ في حديثه عن شباب مكة المكرمة، وما لمسه فيهم من حرص على القراءة الجادة ومتابعة ماتنشره المطابع في البيئات العربية المتقدمة - مصر والشام - وطموحهم إلى تحقيق حياة عصرية حديثة يجارون فيها الأمم المتقدمة، ولا يفرطون في الوقت نفسه

بما يتميزون به من قيم ومبادىء . ولقد كانت مكة في تلك الأيام هي عاصمة الدولة السعودية الجديدة، وعاصمة العلم والأدب والصحافة، لذلك فإن شبابها يمثلون شباب المملكة المتعلم المتنوّر، وكانوا يفدون إليها للدراسة من كل مكان . يقول هيكل عن أولئك الشباب :«وصبوة شباب مكة للحياة الحديثة قوية آخذة بنفوسهم، تدفعهم إلى تتبع مايكتب ويقال عن هذه الحياة وإلى التعلق بما يظنونه من صورها وأمثالها ويبلغ اندفاع بعضهم في هذا السبيل حدّاً يكاد ينكره ماضي البلد الحرام في العصور القريبة، بل يكاد ينكره حاضره ممثلا في الجيل الذي تخطى الشباب إلى الكهولة . فهذا الجيل مايزال يفكّر تفكير الآباء . . ولا يرى في غير ماقاله السلف شيئاً يحترم أو يعار التفاتة، بل يرى في العلوم والفنون الحديثة أفانين من لهو الخيال لا تتصل بالحق أي اتصال جدير بأن يثير عناية الذهن . . » [٨٩] . ويستشهد هيكل بحافظ وهبه الذي كان مديرا للتعليم في الحجاز سنة ١٩٣٠م، ومالقيه في سبيل إصلاح التعليم من عنت العلماء والمشائخ، لولا تعضيد الملك عبدالعزيز له والوقوف معه ضد المتنطّعين . ومع أن هيكل لم يذكر أحدا من أولئك الشباب المتنورين، والذين كانوا، كما يقول، يزورونه ويتحدثون إليه طوال إقامته في الحجاز، فإننا نعرف أن منهم، في أغلب الظن، بعضا من الشباب الذين ضمهم كتاب «وحي الصحراء»، الذي صدرت طبعته الأولى بمكة المكرمة سنة ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٧م، وجمع نماذجه كل من الأديبين : محمد سعيد عبدالمقصود وعبدالله عمر بلخير، كما كتب مقدمته صاحب كتاب «منزل الوحي» نفسه «حضرة الكاتب الكبير الدكتور محمد حسين هيكل بك» . ومن أولئك الشباب الذين ضمهم «وحي الصحراء» : أحمد السباعي وأحمد قنديل وحسين سرحان وعبدالقدوس الأنصاري وعزيز ضياء ومحمد سرور الصبّان . إنهم مجموعة الشباب الذين كانوا يكتبون في صحيفتي «أم القرى» و «صوت الحجاز»، والذين يمثلون الطلائع الأولى للثقافة الجديدة وللأدب العربي السعودي الحديث بين الحربين .

وحين زارت بنت الشاطىء منطقة الأحساء سنة ١٩٥١م، والتقت بأدباء القطيف واستمعت إليهم، قالت ماقاله هيكل في مقدمة «وحي الصحراء» عن شباب مكة الذين كانوا يقرؤون بنهم لأساتذتهم المصريين ويتابعون الجديد من فكرهم وإبداعهم، ولا يجدون منهم سوى الإهمال وعدم الاهتمام . يقول هيكل : «فناشئة الحجاز شديدة الولع بالاطلاع

على جميع الآثار الأدبية التي تظهر في البلاد العربية في العصر الأخير، ولقد أتيح لي أثناء مقامي بالحجاز واتصالي بالمثقفين من أبنائه أن ألاحظ هذه الظاهرة أشد وضوحا فيهم منها في أبناء مصر . . » [٩٠] . وتقول بنت الشاطىء عن أدباء القطيف : «وهي (القطيف) على الهجر الأليم . . لا تكف عن ذكر مصر وتتبع نهضتها العلمية والأدبية . إنها في معزلها النائي المهجور على ساحل الخليج، تستورد البضاعة الأدبية من ضفاف النيل وتعرف عن سير الفن والحياة بها، وأعلام الأدب والفكر فيها مايجهله المصريون أنفسهم، لا أكاد استثني منهم سوى قلة من خاصة المتعلمين[٩١] . ومن أدباء القطيف الذين تذكرهم بنت الشاطىء في رحلتها : عبدرب الرسول الجشي ومحمد سعيد الشيخ الخنيزي ومحمد سعيد الجشي [٩٢] .

ونلاحظ أخيرا أن ثقافتنا المحلية في أواخر العهد العثماني والعهد الهاشمي، وكما صورتها الرحلات العربية، كانت ثقافة تقليدية يغلب عليها الضعف وسمات العصور المتأخرة، وإن بدأت تنتعش قليلا بما كان يكتبه الأدباء العرب الوافدون في صحيفة «القبلة» أثناء العهد الهاشمي .ولعل ذلك الضعف العام في ثقافتنا الفصيحة هو الذي حوّل بعض أولئك الرحّالة إلى ثقافتنا الشعبية فكتبوا عنها كتابات أكثر تعاطفا وصدقا، كما فعل الزركلي في «مارأيت وما سمعت» وما فعله الريحاني في «ملوك العرب» . وقد استمر هذا الاهتمام باللغة واللهجة المحلية والشعر البدوي عند أرسلان وعبدالوهاب عزام . أما الثقافة في العهد السعودي فلم تجد من الرحّالة العرب من يهتم بها الاهتمام الكافي . وقد رأينا أن معظم الأسماء التي ذكروها في أعمالهم كانت أسماء لبعض الأدباء العرب، ولم يذكروا سوى النزر القليل من الأدباء المحليين، مع أن تلك الفترة كانت تعج بأسماء الأدباء والشعراء السعوديين من أمثال : ابن عثيمين وابن بليهد والغزاوي والعواد وحمزة شحاتة الخ . والغريب أن أحدا من أولئك الرحّالة لم يذكر شيئا عن صحافة تلك الفترة، وقد كانت الوعاء الوحيد للأدب والثقافة، لعدم تيسّر طباعة الكتب . وقد كانت صحيفة «أم القرى» في أوج تألقها عند وصول أرسلان والمازني، وأضيفت إليها «صوت الحجاز» أثناء رحلة هيكل . أما في أثناء رحلات عبدالوهاب عزام وبنت الشاطىء فقد كانت البلاد تعيش نهضة صحفية رائعة،وذلك بتلاحق صدور الصحف والمجلات من أمثال «المنهل» و «البلاد السعودية» .

أساليب التصوير :

للرحلة قيمة أدبية ومذاق جمالي ممتع إلى جانب مايمكن أن تحتفظ به من قيمة تاريخية أو توثيقية . ذلك لأن الرحلة تختلف عن الكتاب التاريخي الذي يعنى بالحقائق فقط، أو يحاول تقديم صورة موضوعية مجردة عن الميول الذاتية . ومع أن في الرحلة الكثير من الحقائق، إلا أنها لا تخلو من الانطباعات الشخصية والانفعالات التي تمليها الظروف والمواقف المتباينة . والفرق، في تقديري، بين المؤرخ والرحّالة أن الأول يستقي معلوماته في غالب الأمر من المستندات والوثائق والكتب، بينما يستقيها الثاني من التجوال والتأمّل والاستماع والمشاهدة . بل إن في الرحلات القديمة الكثير من آثار الخيال والاسطورة والاسلوب القصصي مما جعل بعض الباحثين المحدثين يؤكد «أنها خير ردّ على التهمة التي طالما اتهم بها هذا الأدب (العربي)، ونقصد تهمة قصوره في فن القصة» [٩٣] . ويقول اغناطيوس كراتشكوفسكي عن الأدب الجغرافي العربي إنه فريد في غناه وتنوعه ولا يضاهيه أدب أي شعب من الشعوب، فإلى جانب جدّيته وصرامته «نلتقي فيه بنماذج فنية رائعة صيغت بالسجع أحيانا في المصنفات الموضوعية من أجل جمهرة القراء، يتراوح فيها العرض بين الجفاف والصرامة من جهة والإمتاع والحيوية من جهة أخرى . .» [٩٤] .

ونحن نجد في الرحلات العربية الحديثة شيئا من هذا التنوع والغنى الذي تحدث عنه الباحثون في الرحلات القديمة، مع التسليم بطبيعة الحال بفارق العصر والظروف والمزاج . كما أن الرحلات تختلف باختلاف كتّابها وأهدافهم، كما ذكرنا، فنجد أن رحلات الحج والزيارة تهتم بالطرق والأمن والمناسك والآثار الإسلامية، بينما تهتم الرحلات السياسية بالحكام والمسؤولين والقضايا العامة، أما الرحلات الصحفية فتهتم بالمناسبات والغرائب والإثارة . على ان معظم أصحاب الرحلات التي ذكرناها هم من الأدباء المشهورين والمعروفين بآثارهم في الشعر والقصة والمقال، فلا غرو أن تحمل رحلاتهم الكثير من سمات الإبداع والجمال، وأن تعكس أيضا بعض ما نعرفه من ملامح أعمالهم السابقة . ومع أن الأسلوب التقريري المباشر لا تكاد تخلو منه أي رحلة من الرحلات - وهو الأسلوب الذي يستخدم غالبا في سرد الأرقام والحقائق المجردة - إلا أننا نستطيع أن نقول : إنه الأسلوب السائد في الرحلات العلمية، مثل رحلة هيكل، وكذلك في الرحلات الرسمية،

كرحلتي رفعت والبتنوني، وقد كتبها الأول باعتباره أميرا للمحمل المصري، وكتبها الثاني باعتباره مرافقا للخديوي .

أما رحلات الريحاني والمازني والزركلي وبنت الشاطىء وأرسلان، فكثيرا ماتمتزج فيها الطريقة التقريرية المحايدة بالطريقة الأدبية التي تعتمد على التأنق في اللغة والوصف، وإطلاق العنان للعاطفة والخيال . وهذه الطريقة الأدبية هي في الحقيقة مايعطي لرحلاتهم الكثير من عناصر الحيوية والمتعة . وسنقتصر هنا على عرض بعض النماذج لكل من الريحاني والمازني، وقد لاحظت غلبة الأسلوب الدرامي عند الريحاني، وغلبة الأسلوب القصصي الساخر عند المازني .

الريحاني والأسلوب الدرامي :

ونقصد بالأسلوب الدرامي هنا تمثيل المشهد وملأه بالحركة والفعل، وعدم الاقتصار على مجرد السرد أو الوصف . وللريحاني قدرة خارقة على استبطان الشخصيات، وتمثّل أقوالها وأفعالها، وملاحظة ماتكرره من ألفاظ أو عبارات ، ثم تجسيدها أمامنا بكل ماحولها من مناظر ومؤثرات، وكأننا أمام مسرح صغير . ولنتأمّل النص التالي الذي يمثّل أول مقابلة للريحاني مع «السلطان» عبدالعزيز في النفود بين العقير والأحساء، يقول :

«راح الربّع يجمعون الحطب للنار . وفرشنا أنا والسيد هاشم البيت! مددنا السّجادة ثم وضعنا الكور في الصدر مسندا على عادة العرب وهذا كل ماهناك تأهبا لاستقبال مليك من ملوك العرب .

وكان الليل صافي الجبين، رقيق الجلباب، شأنه في البادية تدنو النجوم في سمائه من الأرض بريقا، وتسمع فيه الأصوات، كأنها على طول المسافات الأبواق في الغابات، لها دويّ لطيف ينجد ويغور، وصدى يتموّج كالنور . وما أرهب وما أجمل صوتا سمعناه آنئذ وراء الآكام في مروج الليل ينادي : يا سعيّد - يسْعايدْ! مبشّراً بقدوم السلطان أو بمروره في ذاك المكان . إن المنادي ليتقدم الموكب السلطاني حتى إذا سمعه أحد في البادية أو الحضر يروم من سيّد البلاد أمرا أو يحمل إليه شكاية، أو يبغى الركوب في موكبه، فهو يقصد مسرعا إلى مكان الصوت فيفوز ببغيته - يا سعيّدْ - يسْعايّدْ» .

هكذا إذن، يمهد الريحاني لدخول البطل، يبدأ المكان صامتا لا حركة فيه سوى الفعل العضوي العادي، من جمع الحطب وشبّ النار ومدّ السّجاد ووضع الكور والاسترخاء . وفي

غياب الفعل البشري تبرز الطبيعة وتملأ الصمت برقتها وجمالها وغموضها ورهبتها فتدنو النجوم ويمتلىء الفضاء بالأصوات، أما الصوت البشري الذي يرتفع وينطلق أخيرا : يا سعيّدْ - يسْعايّدْ فهو الصوت الذي اعتادته العرب مخبراً ومبشراً بدنو البطل - الملك . ولنلاحظ محاكاة الصوت بنبرته النجدية :«يسْعايّد» حيث تسقط الألف من ياء النداء وتأتي بعد حرف العين مباشرة محتفظة في الوقت نفسه بمهمة المد والتصويت .

وبعد هذا المشهد التمهيدي من الصمت والترقب والنداء، يدخل الملك، فتزداد الضوضاء ويضج المكان بالحركة وتختلط الأصوات بما فيها رغاء الإبل وأصوات الخيزران وفحيح النيران ورنين المداق على هذا النحو : «وبعد هنيهة ضج المكان بموكب السلطان، فأناخ عندنا، على أكمتنا، حول شراعنا الصغير، مئتان من الركائب، وهي تزبد وترغى . إخْ - إخْ، وصوت الخيزران على رقاب البعارين كصوت المطر على النخيل . ثم نصبت الخيام وشبت عشرات من النيران، وسمعت على الفور المداق في الأجران . .»

ولنلاحظ هنا مبلغ الدهشة التي أصابت الكاتب من جراء هذا التواضع السلطاني الذي لم يتوقعه، فعبّر عن ذلك بجملة من الأفعال والأوصاف التي تؤكد حدوث الفعل المرة تلو المرة، وكأنه في حلم، أو أن مايشاهده أمامه لا يعدو أن يكون من صنع الخيال :«أناخ عندنا» ، «على أكمتنا»، «حول شراعنا الصغير» . وتكرار ضمير المتكلم في «عندنا» . و «أكمتنا» و «شراعنا» توحي للقارىء بعدم التصديق . ولكن هذ الموكب السلطاني الذي أمامه كان حقيقة لا حلما، وبدليل هذه الركائب الكثيرة التي ترغي وتزبد، وماتلاها من أفعال سريعة تدل على الدقة والانضباط .

وكانت المفاجأة الكبرى أن يخف السلطان إلى استقبال الزائر لا أن يخف الزائر إلى استقبال السلطان، لا سيما وأن هذا الزائر لا يتمتع بأية صفة رسمية أو حيثيّات «بروتوكولوية» . ثم يلتقي الرجلان أخيرا وجها لوجه وتدور بينهما الأحاديث : «خرجنا نبادر إلى استقبال الزائر الكبير، فإذا هو قد خفّ إلينا، وفي معيته اثنان فقط من حاشيته . قلت الزائر وهو الذي شاء تلّطفا وتنازلا أن يعكس الآية . وكانت المشاهدة الأولى على الرمل، تحت السماء والنجوم، وفي نور النيران المتقدة حولنا . ألفيته رجلا لا يمتاز ظاهرا بغير طوله، وكان يلبس ثوبا أبيض وعباءة بنّية، وعقالا مقصّبا فوق كوفية من القطن حمراء . .»[٩٥] .

إن مثل هذا التصوير الدرامي الذي يعتمد على الحركة والفعل ومسرحة الصور والمشاهد، هو تصوير نادر في الرحلات العربية، ويكاد الريحاني ينفرد بهذه الموهبة المتميزة . ونلاحظ أن الريحاني هو الوحيد الذي قام بمقابلة معظم ملوك الجزيرة العربية وأمرائها بعد الحرب العالمية الأولى . وكان في مقابلاته جميعها لمّاحا، جريئا، حاد البصر، نافذ البصيرة .

ولكن التصوير الدرامي عند الريحاني لا يقتصر على الشخصيّات، بل يمتد ليشمل كذلك المدن والقرى وجميع مظاهر الطبيعة، كوصفة الرائع لعنيزة وبريدة والنفود وجيزان . ويتحول الجماد في هذا التصوير إلى حركة وحياة، حتى لنكاد نحس بنبض المدن وتنفس الأشجار وتحرك الصحاري والقفار . يقول عن عنيزة : «مليكة القصيم . عنيزة حصن الحرية ومحط رحال أبناء الأمصار . عنيزة قطب الذوق والأدب، باريس نجد . وهي أجمل من باريس إذا أشرفت عليها من الصفرا لأن ليس في باريس نخيل وليس لباريس منطقة من ذهب النفود، بل هي أجمل من باريس حين إشرافك عليها، لأنها صغيرة وديعة خلاّبة بألوانها، كأنها صورة صوّرها مانه لقصة من قصص ألف ليلة وليلة، وكأنها لؤلؤة في صحن من الذهب مطوق باللازورد، بل قل : إنها السكينة مجسدة وقد بنت لها معبدا بين النخيل، زانته بإفريز من ذهب الرمال، وكلّلته بأكاليل من الأثل، فهي في مجوف من الأرض يحيط بها غاب من هذه الأشجار ليرد عنها رمال النفود التي تهددها من الجهات الثلاث » [٩٦] .

لقد تحولت «عنيزة» في هذا النص إلى إنسان، بل إلى فتاة جميلة تشعر وتحس وتتزين بالحلى والجواهر . وتحولت الرمال إلى ذهب برّاق، وأشجار الأثل إلى أكاليل خضراء يانعة . ومن المعروف هيام الرومانسيين بالطبيعة وتجسيدهم لها، ولكن هذه الطبيعة قد تجلّت في رحلة الريحاني - رغم المحل والجفاف - إلى لوحات فنية رائعة .

المازني والأسلوب الساخر :

للسخرية في كتابات المازني وكتابات غيره من المحدثين، من أمثال الشدياق والبشْرى وأحمد السباعي، مكانة بارزة في نقد الحياة والمجتمع وتناول القضايا المهمة الجادة بطريقة هزلية تستثير الضحك وتروّح عن النفس وتتجاوز الشكل الظاهر البسيط إلى العمق . وقد كان الجاحظ أستاذا في هذا الباب . ويبدو أن المازني قد تأثر بقراءاته الواسعة في التراث،

وباطلاعه على آثار اساطين السخرية في الأدب الإنجليزي من أمثال بوب ومارك توين وبرناردشو .

وفي رحلته الحجازية نرى المازني كثيرا مايتوقف عند بعض المظاهر أو العادات المحلية التي لم يألفها أو لم تعجبه، فيمدّ لها لسانه ويشبعها تهكما وسخرية . ومن تلك المظاهر والعادات : صورة البدوي الفارس الذي يطلق شعره ويضفّره ويكحّل عينيه، وصورة البدوي الطفل الذي يصعد على ظهر الجمل من الخلف وهو سائر متعلقا بذيله، زاحفا على فخذيه، وصورة بعض الناس وهم يجذبون كتفي الأمير ويقبّلون أنفه . ومن العادات الاجتماعية التي لم يألفها المازني كذلك طريقة صب القهوة العربية وارتشافها دفعة واحدة، وطريقة أداء العرضة النجدية ومايصاحبها أحيانا من طلقات نارية، الخ .

وتعتمد سخرية المازني على وصف المشهد الذي أمامه وصفا دقيقا، مع التركيز على الجانب الذي يريد السخرية منه ولفت الأنظار إليه، كما نرى في النص الآتي الذي يسخر فيه من عادة تقبيل الأنف : « . . . . وبعد لأي ما بلغنا غرفة الاستقبال، وكان الأمير واقفا في الصدر وحوله الكبراء والجند، والناس يتقدمون إليه ويصافحونه . فإذا كان من بينهم عظيم أو وجيه، وضع - أي الوجيه - يده على كتفي الأمير وجذبه وقبّل أنفه، لأن الأنف أبرز شيء في الوجه . وقد وقف الأمير كما رأيناه، مقدّما أنفه لمن شاء ومتلقياً عليها قبل المهنئين ولثمات الداعين » .

فنحن نلاحظ في هذا النص أسلوب المبالغة في تضخيم قيمة الأنف، فالعظماء والوجهاء هم الذين يقومون بتقبيله، لأن الأنف - كما يقول - يحتل مكانا بارزا في الوجه، فكأنما العظيم إنما ينجذب إلى مايشاكله أو يساويه في البروز والأهمية . ولكن المازني لا يسخر من الآخرين فحسب، بل يسخر كذلك من نفسه، فهو يقول : إنه كان يود أن يفعل مايفعله أولئك العظماء إلا أن قصر قامته قد حال دون ذلك، فاضطر أن يكتفي بالمصافحة فقط، مع التنويه في الوقت نفسه بمواضع العظمة فيه يقول : «فلما جاء دورنا، وددت لو أنه كان أمامه (الأمير) كرسيّ، إذا لفزت أنا أيضا بتقبيل أنفه ولجرّبت ذلك وعرفت سببه وتقصيّت سره، ولكني كما تعرف، فاكتفيت بأن تقدمت إليه في تؤدة ووقار، ويسراي تمسح لحيتي تنبيها إليها ولفتا لشيبها، ويمناي تمتد إلى يده وتقبض عليها . . » (٩٧) .

وقد سخر المازني من نفسه أيضا في وصفه للعرضة النجدية وماكان يصاحبها آنذاك

من طلق ناري . فقد خاف على نفسه فتوارى خلف ممثل انجلترا الذي ظن أن المازني إنما يقف وراءه تأدّبا . . يقول : « . . ولا أكتم القارىء أن الخوف لم يفارقني لحظة، واني لم أذهل عن نفسي ثانية واحدة . واعترف اني كنت أخشى أن يصيبني سوء - أعني رصاصة - وأشهد لنفسي بالأدب، فقد كنت لا أزال كلما تنحّى ممثل إنجلترا ليفسح لي مكانا إلى جانبه في الصف الأول، أؤكد له أني أستطيع أن أرى من تحت إبطه، وأني لا أقبل في حال من الأحوال أن أحاذيه أو أرفع نفسي إلى مقامه، فكان يشكر لي تواضعي ويؤكد لي أنه سعيد بجيرتي وأنه معجب بذلاقة لساني وقدرتي على الرطانة، فكنت أقول له : يا سيدي الوزير، إني عربي الأصل في الحقيقة، وهذه البلاد بلادي في الواقع، فأنا لست هنا ضيفا، ولا يجوز لابن البلاد أن يسبق الضيف أو يتقدم عليه . . . » (٩٨) .

وهكذا نرى أن الرحلة عند المازني قد تحولت إلى مجموعة من المواقف الطريفة والمشاهد الشائقة المتنوعة . وهي قد توحي في مجموعها بالغربة في مجتمع بدوي متخلف في ذلك الوقت، ولكن سخرية المازني، فيما أظن، لم تكن للتصغير أو التّشفّي من الآخرين، بقدر ماكانت تنمّ عن نظرة إنسانية أوسع وأشمل، وكانت عيوبه الشخصية كذلك موضع تندره وسخريته، وهي على أي حال ليست عيوبا خاصة، بل عيوب النفس البشرية والضعف الإنساني على نحو أعم .

الهوامش

١ - مجلة الدارة، ع٣، س٥، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، ص ٢٨ - ٥٣ .

٢ - مرآة الحرمين - أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية (مطبعة دار الكتب المصرية، ط١، القاهرة ١٣٤٤ هـ / ١٩٢٥م)، جـ ١، ص ٧٣ .

٣ - انظر : الأمير شكيب أرسلان : الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف (مطبعة المنار، ط ١، القاهرة ١٣٥٠)، ص ٧٨ .

٤ - مرآة الحرمين، ط ١ ص ٤٣٩، هامش .

٥ - ملوك العرب - أو رحلة في البلاد العربية (مطابع دار صادر، ط ٣، بيروت ١٩٥١)، جـ ١ ، ص ٩ .

٦ - الرحلة الحجازية (مطبعة الجمالية، ط٢، القاهرة ١٣٢٩هـ)، المقدمة، ص٥ .

٧ - في منزل الوحي (مطبعة دار الكتب المصرية، ط ١، القاهرة ١٣٥٦هـ)، ص ٩ - ١٠ .

٨ - أرض المعجزات - رحلة في جزيرة العرب (سلسلة اقرأ رقم ١٠٤، دار المعارف، ط ٣، القاهرة ١٩٦٩م)، ص ٢٦ .

٩ - مارأيت وماسمعت (المطبعة العربية ومكتبتها بمصر، ١٣٤٢هـ - ١٩٢٣م)، ص ٤٧ - ٤٨ .

١٠ - في منزل الوحي، ص ٤٠٧ .

١١ - المرجع السابق، ص ٣٥٦ .

١٢ - إبراهيم عبدالقادر المازني : رحلة إلى الحجاز (مطبوعات الجديد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ٢ القاهرة ١٩٧٣) ص ٣١ .

١٣ - المرجع السابق، ص ٣٣ .

١٤ - علي الطنطاوي : من نفحات الحرم (مطابع دار الفكر، ط ١ دمشق، سنة ١٩٦٠م) ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

١٥ - المرجع السابق، ص ٤٥ - ٤٧، وانظر أيضا : المازني : رحلة إلى الحجاز، ص ١٥٠ - ١٥١، أحمد حسين : مشاهداتي في جزيرة العرب (مطبعة مصر، القاهرة ١٩٥٠م)، ص ٣٠٣ - ٣٠٤ .

١٦- محمد شفيق مصطفى : في قلب نجد والحجاز (مكتبة المنار، القاهرة ١٣٤٦ هـ / ١٩٢٧م . وانظر ماقلناه عن هذه الرحلة في بحثنا : «رحلات العرب في جزيرة العرب»، مجلة الدارة، ع٣، س٥، ربيع الثاني ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، ص ٤٨ .

١٧ - مرآة الحرمين، جـ ١، ص ٤١٠ .

١٨ - في منزل الوحي، ص ٤٨٥ .

١٩ - مرآة الحرمين، جـ ٢، ص ١٣ .

٢٠ - المرجع السابق، جـ ١، ص ٦٨ .

٢١ - المرجع السابق، جـ ١، ص ٢٥ .

٢٢ - المرجع السابق، جـ ١، ص ٣٩٩ .

٢٣- المرجع السابق، جـ ١، ص ٣٧ .

٢٤ - ملوك العرب، جـ ٢، ص ٧٦ - ٧٧ .

٢٥ - المرجع السابق، جـ ١، ص ٢٦٣ .

٢٦ - مرآةالحرمين، جـ ١، ص ٤٠١ .

٢٧ - ملوك العرب، جـ ١، ص ٢٦٣ .
٢٨ - مرآة الحرمين، جـ ١، ص ٥١ .
٢٩ - المرجع السابق، جـ ١، ص ٤٠٣ - ٤٠٥ .
٣٠ - المرجع السابق، جـ ١، ص ٢٥ .
٣١ - ملوك العرب، جـ ١، ص ٧٠ .
٣٢ - مرآة الحرمين، جـ ١، ص ٦٤ - ٦٥ .
٣٣ - المرجع السابق، جـ ١، ص٦٤ - ٦٥ .
٣٤ - المرجع السابق، جـ ٢، ص ٢٧٦، ٢٩٥ .
٣٥ - المرجع السابق، جـ ١، ص ٣٥٤ .
٣٦ - البتنوني : الرحلة الحجازية، ص ٨٠ - ٨١ . يقول الزركلي إن وفاة عبدالإله باشا كانت في الثالث من شوال سنة ١٣٢٦هـ، وان الشريف الحسين قد تولى الإمارة بعد وفاة عمه في السادس من شوال من السنة نفسها، وانه بلغ جدة قادما من الآستانة في ٩ ذي القعدة سنة ١٣٢٦هـ، وكان ذلك بداية امارته بمكة المكرمة . انظر : ما رأيت وما سمعت، ص ١١٣ .
٣٧ - الرحلة الحجازية، ص ١١ .
٣٨ - المرجع السابق، الصفحة نفسها .
٣٩ - رحلات الإمام محمد رشيد رضا (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ١، بيروت ١٩٧١م)، ص ١٧٩ - ١٨٠ .
٤٠ - المرجع السابق، ص ١٨١، وانظر الخطبة كاملة ص ١٧٨ - ١٨٢ .
٤١ - المرجع السابق، ص ٢٠٣ .
٤٢- المرجع السابق، ص ٢٠٤ .
٤٣ - مارأيت وماسمعت، ص ١٢٣ .
٤٤ - المرجع السابق، ص ٢٥ .
٤٥ - المرجع السابق، ص ١٢٥ .
٤٦ - المرجع السابق، ص ٢٣ .
٤٧ - المرجع السابق، ص ١١١ .
٤٨ - المرجع السابق، ص ١١٣ - ١١٤ .
٤٩ - المرجع السابق، ص ١١٤ - ١١٥ .
٥٠ - المرجع السابق، ص ١٢٣ - ١٢٤ .
٥١ - ملوك العرب، جـ ١، ص ٦٤ .
٥٢ - المرجع السابق، جـ ٢، ص ٤٠ - ٤١ .
٥٣ - المرجع السابق، جـ ٢، ص ٤١ .
٥٤ - المرجع السابق، جـ ٢، ص ٤٢ .
٥٥ - المرجع السابق، جـ ٢، ص ٦٣ .

٥٦ - المرجع السابق، جـ ٢، ص ٧٤ - ٧٥ .
٥٧- الارتسامات اللطاف، ص ١٢ .
٥٨ - في منزل الوحي، ص ١٤٤ .
٥٩ - مرآة الحرمين، جـ ١، ص ٣٨ .
٦٠ - المصدر السابق، جـ ١، ص ١٨٢ - ١٨٣ .
٦١ - مرآة الحرمين، جـ ١، ص ١٨٣، وانظر أيضا : البتنوني : الرحلة الحجازية، ص ٥٨ - ٥٩ .
٦٢ - الرحلة الحجازية، ص ٥٩ .
٦٣ - المرجع السابق، ص ٢٥٥ .
٦٤ - المرجع السابق، ص ٦٠ .
٦٥ - مرآة الحرمين، جـ ٢، ص ٢٦٨ .
٦٦ - المرجع السابق، جـ ٢، ص ٣٢١ .
٦٧ - رحلة إلى الحجاز، ص ١٥٣ .
٦٨ - ملوك العرب، جـ ٢، ص ٨٩ .
٦٩ - المرجع السابق، جـ ١، ص ٢٨٧ .
٧٠ - مرآة الحرمين، جـ ١، ص ٢٠ .
٧١ - مارأيت وماسمعت، ص ٢٠ - ٢٣ .
٧٢ - المرجع السابق، ص ٧٧ .
٧٣ - المرجع السابق، ص ٧٨ .
٧٤ - المرجع السابق، ص ٧٧ .
٧٥ - ملوك العرب، جـ ١، ص ٥٠ - ٥١ .
٧٦ - رحلة إلى الحجاز، ص ٤٤ .
٧٧ - المرجع السابق، ص ٤٨ .
٧٨ - المرجع السابق، ص ٦٨ .
٧٩ - المرجع السابق، ص ٤٤ .
٨٠ - المرجع السابق، ص ١٥٤ .
٨١ - المرجع السابق، ص ١٥٩ .
٨٢ - الارتسامات اللطاف، ص ٢٦٢ .
٨٣ - المرجع السابق، ص ١٩٩ .
٨٤ - في منزل الوحي، ص ١٠٦ .
٨٥ - المرجع السابق، ص ٤٤٠ .
٨٦ - المرجع السابق، ص ٢٩٢ - ٢٩٤ .
٨٧ - مشاهداتي في جزيرة العرب، ولعل الصحيح «بلخير» وليس «أبو الخير» .
٨٨ - المرجع السابق، ص ٢٣٧ .

٨٩ - في منزل الوحي، ص ١٢٢ .

٩٠ - وحي الصحراء (تهامة، ط ٢، جدة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م)، المقدمة، ص٢٢ .

٩١ - أرض المعجزات .

٩٢ - المرجع السابق، ص ١١٩ ومابعدها .

٩٣ - شوقي ضيف : الرحلات، المقدمة، ص ٦ .

٩٤ - تاريخ الأدب الجغرافي العربي - تعريب صلاح الدين عثمان (لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٣م)، القسم الأول، ص ٢٤ - ٢٥ .

٩٥ - ملوك العرب، جـ ٢، ص ٤٠ - ٤١ .

٩٦ - المرجع السابق، جـ ٢، ص ١٢٠ .

٩٧ - رحلة إلى الحجاز، ص ١١٠ - ١١١ .

٩٨ - المرجع السابق، ص ١٥٦ - ١٥٧ .

الفهرس

المحتوى	الصفحة
	41

تنويه: هذا الفهرس ليس من أصل الكتاب ؛ وإنما أعددته تسهيلاً للوصول الى المواضيع .

م. سرمد حاتم شكر السامرائي